عذارى الهند

بيرل بك



مؤلفة الرواية

ولدت (بيرل سيدنستريكر بك) **Pearl Sydenstricker Buck** فى بلدة (هيلزبورو) بولاية فرجينيا الغربية بامريكا يوم ٢٦ يونيه سنة ١٨٩٢ ، وقبل أن تتم السنة الاولى من حياتها سافرت الى الصين حيث كان ابوها يشتغل بالتبشير . ولما بلغت الخامسة عشرة من عمرها التحقت بمدرسة داخلية فى شنغهاى . ثم عادت لامريكا بعد سنتين والتحقت بكلية (راندولف — ماكون)

ولما عادت الى الصين قضت بضع سنوات فى شمالها ، ثم انتقلت الى مدينة نانكين حيث عملت مدرسة للآداب الانجليزية بجامعتها ، ثم عملت فى الجامعة الجنوبية الشرقية ، ثم فى جامعة (شنج — يانج)

وفى سنة ١٩٢٥ عادت الى امريكا حيث حصلت على درجة الاستاذية من جامعة (كورنيل) وفازت بجائزة (لورامنجر) للتاريخ عن موضوع « الصين والغرب »

واول رواية اخرجتها هى « ريح الشرق » التى الفتها خلال رحلتها الثانية لامريكا . ثم اخرجت رواية « ريح الغرب » فى سنة ١٩٣٠ . وفى السنة التالية اخرجت رواية « الارض الطيبة » فأعجب بها النقاد جميعا ، لدرجة انها ظلت واحدا وعشرين شهرا فى طليعة الكتب الشديدة الرواج

وظهر لها بعد ذلك رواية « الابناء » — وهى تتمة لرواية « الارض الطيبة » — فى سنة ١٩٣٢ . وقد وصفها وليم ليون فيلز بانها من المؤلفات الممتازة فى العصر الحديث . ثم ظهر الكتاب الاخير عن اسرة وانج فى سنة ١٩٣٥ باسم « بيت منقسم على نفسه » . وصارت الروايات الثلاث تباع فى مجلد واحد بعنوان « بيت الارض »

وفى خلال ذلك ظهرت لها فى سنة ١٩٣٤ رواية قائمة بذاتها باسم « الام » . كما نشرت لها قبل ذلك ترجمة لاشهر قصة صينية وهى قصة (شوى هوشان) وقد جعلت عنوانها بالانجليزية : « كل الناس اخوة » . وفى سنة ١٩٣٦ نشرت لها روايتا « المنفى » و « الملك

القاتل » وكانتا ترجمة لحياة امها وأبيها . وفى سنة ١٩٣٨ كتبت لاول مرة عن الحياة الامريكية فى رواية « القلب الفخور » ، وكانت الحلقة الاولى لسلسلة روايات عن النساء الامريكيات

وقد منحتها جامعة (ييل) فى سنة ١٩٣٣ درجة الاستاذية الفخرية فى الآداب . وفى السنة التالية انتقلت الى أمريكا حيث اقامت بها ومنحت ميدالية هويلز سنة ١٩٣٥ واختيرت عضوا فى المعهد الوطنى للفنون والاداب سنة ١٩٣٦ . ثم منحتها الاكاديمية السويدية جائزة نوبل للاداب سنة ١٩٣٨ « لوصفها الدقيق الواضح للحياة الصينية الريفية » . كما منحت درجة الدكتوراه الفخرية فى الاداب من جامعة فرجينيا وجامعة سانت لورنس

وفى سنة ١٩٣٩ نشرت لها رواية « الوطنى » . واعقبتها فى سنة ١٩٤٠ بروايتها الثانية عن الحياة الامريكية واسمها « آلهة اخرون » ثم اثرت فيها الحرب فنشرت فى سنة ١٩٤٢ رواية عن اهوالها باسم « بذرة الفول » . وأخرجت تكملة لها فى سنة ١٩٤٣ باسم « الوعد »

ومنذ سنوات صدرت لها رواية « رجال الله » وهى تمثل مشكلة العصر الحاضر ، وهى الصراع المستمر بين الايمان والقوة .. وقد القت بيرل بك كثيرا من المحاضرات ، طبع بعضها فى ثلاثة مجلدات ، كما طبع بعد ذلك مجلدان شملا قصصا صغيرة كتبتها . واربعة كتب الفتها خصيصا للاطفال . وقد اسست (جمعية الشرق والغرب) وتولت رياستها ، وغايتها التقريب بين الشرقيين والغربيين

شخصيات الرواية

دافيد ماكارد : David Mackard	مليونير امريكى مقيم بالهند
أوليفيا ماكارد : Olivia Mackard	زوجة دافيد
تيودور ماكارد : Theodore Mackard	ابن دافيد واوليفيا
ليفى ماكارد : Livy Mackard	ابنة تيودور الكبرى
المستر فوردام : Mr. Fordahm	مبشر امريكى فى الهند
المسز فوردام : Mrs Fordahm	زوجة المستر فوردام
روثى فوردام : Ruthei Fordahm	ابنة مستر ومسز فوردام
المستر داريا : Mr. Dariya	أحد أثرياء الهنود
السيدة ليلامانى : Lady Leillamani	زوجة مستر داريا
جيهار سنغ : Jehar Singh	ابن أحد اثرياء طائفة السيخ
آنيز لينلى : Agnes Linlay	ابنة أحد الحكام الانجليز فى الهند
الدكتور جاتان : Dr. Jatan	طبيب هندى شاب

الفصل الأول

لقاء بين قلبين

وقفت « اوليفيا » على سطح الباخرة فى بكور الصباح تنظر الى شواطىء الهند . وكانت السماء فوق ميناء بومباى تتلون تدريجيا باضواء الفجر الباهتة ، بينما تزداد اضواء مصابيح الميناء خفوتا وضعفا كلما ازدادت اضواء الفجر وضوحا وقوة . اما القمر الذى كان يبدو فى أفق المياه البعيد ، فكان كقرص من الفضة يوشك ان يغوص فى بحر أسود

وارتفعت عند الميناء غلالات من الضباب الخفيف غلفت المبانى الواقعة وراءها ، ولا سيما معالم تلك القلعة القديمة التى تقوم فوق احدى الروابى ..

وهكذا اجتمعت اضواء الفجر المنساب رويدا ، مع غلائل الضباب الوردية ، مع بقايا اضواء القمر المنحدر الى الماء لترسم أمام «اوليفيا» هذه اللوحة السحرية لتلك البلاد ..

وكانت السفينة قد القت مراسيها على بعد ميلين من الشاطىء ، لان مياه الميناء الضحلة لم تكن تسمح لمثل هذه السفن الكبيرة بالوصول الى الارصفة .. او هذا على الاقل ما قاله الربان لها .. وكانت الزوارق التجارية فى تلك اللحظات تقترب لتحمل الركاب والبضائع والامتعة

وسمعت صوت أحد الضباط العسكريين الشبان يقول لها وهو يمر بجانبها :

— هل أنت مستعدة يا مس ديسارد ؟

وكان شابا انجليزيا أبدى فى اكثر من مناسبة ، أثناء الرحلة ، اعجابه الشديد — بل وما هو اكثر من الاعجاب — بهذه الفتاة

الامريكية الفاتنة الذاهبة الى الهند لتتزوج من أحد رجال الارساليات الامريكية هناك . وقد حاول فى احدى المناسبات أن يكشف سرها ، فقال لها وهو يراقصها ذات ليلة على نفحات الاوركسترا :

— ان كلّ ما ارجوه أن تنجحى فى اقناع خطيبك بالرحيل عن هذه البلاد القاتلة !

وكان هذا الضابط نفسه احد المغامرين الذين تطوعوا للخدمة العسكرية بالهند ، وهو يرجو ان يعود بثروة طائلة وبمجموعة من النياشين والرتب العسكرية ولهذا قالت له « أوليفيا » : « ولماذا تذهب اليها انت ؟ »

فقال الشاب بصراحة : « لان الهند اهم ميدان لاعمالنا وأكبر مورد من مواردنا .. »

ثم أردف قائلا بعد برهة تفكير : « وعدا هذا فما جدوى أن يكون الانسان مبشرا بالدين المسيحى فى بلاد كهذه ؟ ان الذين يعتنقون ديانتنا هم فقط الذين لا يترددون فى التضحية بأى شىء فى سبيل كسرة خبز ! »

ولم تجب «أوليفيا» عندئذ ، وانما قررت أن تستمتع بالرقص بدلا من ان تضيع الوقت فى هذا الجدل .. وكانت تعلم انها لن تجد مجالات للرقص فى بلدة بونا التى سوف تستقر فيها كزوجة

تذكرت « أوليفيا » هذا كله وهى تجيب على الضابط الشاب بقولها :

— نعم .. أنا على تمام الاستعداد ..

وتوقف الشاب ، وقال وهو يمد يده مصافحا :

— حسنا .. وداعا .. وحظا سعيدا ..

وكان يعرف وهو يلمس يدها أن هذه هى — على الأرجح — آخر مرة يراها فيها

***

وتقدمت الى سطح احد الزوارق البخارية بعد ساعة ، وتبعتها امها المسز ديسارد .. وانطلق الزورق على زبد الموج فى طريقه الى رصيف الميناء ..

وقالت « أوليفيا » فى لهجة آمرة :

ـ اجلسى يا اماه ..

وجلست الأم وهى تحاول جاهدة أن تخفى امارات القلق الشديد المرتسمة على وجهها المغضن . لقد رفضت فى أول الأمر ان تصحب ابنتها الى هذه البلاد البعيدة التى لا تعرف عنها شيئا .. لكن قلبها لم يطاوعها على ترك ابنتها تذهب بمفردها الى هـذه البـلاد لتتزوج شابا لا تكاد تعرفه فقررت ان ترافقها .. وبسبب هـذه الحالة النفسية ، لم تستمتع بلحظة واحدة من الرحلة ، ولم يكن من المنتظر أن تنعم بلحظة واحدة طيلة اقامتها فى الهند . لقد سمعت انها بلاد شديدة الحرارة ، ولم يكن يضايقها فى الحياة شيء مثل الجو الحار . أما الحشرات السامة ، والزواحف القاتلة ـ ولا سـيما الأفاعى ـ فكان مجرد ذكر اسمها كفيلا بافزاعها الى حد الاغماء !

لهذا قررت ان تعود الى وطنها بمجرد ان يتم زواج ابنتها ..

ولم تكن « اوليفيا » قد جلست رغم انها أمرت امها بالجلوس . وانما ظلت واقفة معتمدة بيديهـا على السياج ، ترسل النظر الى الرصيف الذى كان الزورق يقترب منه بسرعة ، غير مبالية بحرارة الشمس التى اخذت تشتد بسرعة بالغة

انها سوف ترى « دافيد » بعد بضع لحظات للمرة الاولى ... وان الشيء الكثير من سعادتها او شقائها سوف يتوقف على هـذه النظرة الاولى . حقا انها راته وعرفته سنوات حتى بلغ العشرين من العمر ـ وهو فى نيويورك ـ ولكنها لم تره مرة واحدةطيلة عشرة اعوام كاملة .. أى منذ أن رحل الى الهند مع أبيـه مهيض الجناح ، لانها رفضت أن تبادله الحب الذى ينتهى الى الزواج !

لقد كان ـ وهو فى العشرين من عمره ـ لايبدو فى عينيها اكثر من غلام مراهق . وكان صديقا لهـا طيلة المرحلة الدراسـية ، وكانت تحبه كصـديق عادى ترتبط أسرته واسرتها بوشـائج الجـوار والصداقة ...

ولكنها فوجئت به وهو يضع قلبه بين يديها ، ويسكب حبه امامها وهو راكع على ركبتيه . فلما أشفقت عليه ، وأوضحت له برفق انه ليس الصـورة التى تتمثلها عن فارس احلامها ، انطوى على نفسه ثم قرر ان ينضم الى أبيه المليونير « هارد ورث ماكارد » الذى جمع

ثروة طائلة من أعماله التجارية بين الهند وامريكا ..

واعجبها منه هـذا القرار الذى يدل على الحزم وقوة النفس ، فراحت تراسله كصديق فى أول الامر ، ثم كمعجبة بنجاحه فى ميدان الاعمال بالهند ، ثم كمتحمسة لمشروعاته الانسـانية التى قرر ان يكرس حياته من أجلها فى هذه البلاد الواسعة الضخمة ..

لقد عرفت من رسائله فى الاشهر الاخيرة انه قرر أن يهب حياته للهند ، وأن يعيش فيها مبشرا ، لا بالدين ، وانما بالحضارة والعلم والمعرفة والثقافة ومحاربة الخرافات والاساطير !

ولما لم تجد فى تلك الفترة الطويلة التى امتدت نحو عشر سنوات فارس الاحلام الذى تخيلته يوما ، أدركت أن « دافيد » هو فعـلا فارس الاحلام بعد ان تحول من فتى مراهق مدلل ، الى رجل له رسالة واضحة نبيلة فى الحياة ..

وما كاد يعرض عليها الزواج فى رسالته الاخيرة ، حتى قررت ان تبحر اليه فى اول باخرة ..

ولكن .. هل سيخفق قلبها عند رؤيته بعد هذه السنوات الطوال؟

ان النظرة الاولى ـ أو على الاصـح اللقـاء الاول ـ هو الذى سيحدد موقفها نهائيا ...

فاما ان تتزوجه ، وتهبه نفسها الى الابد ..

واما أن تعود الى وطنها على نفس الباخرة بعد ثلاثة أيام ..

ورأته فى تلك اللحظة .. كان على رصيف الميناء ، طويلا ، نحيل الجسم ، فى ملابس أوروبية بيضاء ، وقبعة شمس عريضة الحافة ، ومن حوله جموع متزاحمة من المستقبلين ..

ولوحت له بمنديلها الحريرى الاخضر .. فلما لمحها ، رفع قبعته محييا باسما ..

وظل الاثنان يتبادلان النظرات برهة بعد ان وصل الزورق الى الرصيف .. وكأنما كل منهما يبحث فى الاخر عن شيء لايستطيع ان يراه ! وقالت لنفسها : هل تغير ؟ .. انه يبدو أطول كثيرا مما كانت تذكر .. أو لعلها البذلة التيلية البيضاء .. أو لعلها هـذه اللحية الانيقة البنية اللون التى تحيط بوجهه وتضفى عليه سمات رائعـة من الجد والوقار ، وتجعله شديد الاختلاف عن الغلام المراهق الذى

عرفته منذ عشر سنوات ..

وظل هو واقفا فى مكانه لا يريم .. عاقدا يديه أمامه ، منتظرا ان يوضع السلم بين الزورق والرصيف ، فلما تم هذا ، تقدم بخطوات سريعة نحوها .. وعندئذ شعرت بقلبها يخفق بعنف ، وهى تذكر انها وضعت نفسها بين يدى رجل ، وفى بلاد ، لاتكاد تعرف عنهما شيئا .. ومع ذلك فقد أحست وهى تراه قادما نحوها ، بقامته الطويلة ، وخطواته التى تنم عن القوة والصحة انها لن تندم على مافعلت ..

واقبل عليها ، ومد يديه نحوها فى بساطة ، وقال وهو يقبل خدها :« أوليفيا .. حبيبتى ! »

ولمحت فى عينيه بريق الحب الدفين ، فازداد قلبها خفقانا وهى تهمس : « دافيد »

ولم يكن فى مقدورها أن تقول أو تفعل اكثر من هذا أمام ذلك الجمع المتزاحم .. ومن ثم وقفت ممسكة بيده ، بينما اقتربت أمها منهما لتصافح « دافيد » وتقول له :

ـ اننى سعيدة برؤيتك يا « دافيد » ..لقد كانت رحلة طويلة مرهقة . اذن فهذه هى الهند .. يا الهى !

ثم لوحت بيدها نحو الشاطىء وأردفت قائلة :

ـ يا للزحام المفزع !

فقال دافيد ببساطة :

ـ ان الزحام فى كل مكان بالهند .. ولكن الانسان يعتاد عليه ... والهنود فى الواقع قوم طيبون ودودون ... اين الحقائب يا اوليفيا ؟! يجب ان نمر بها من الجمرك

واشار الى حمال جاء به من فندق « جراند » الذى حجز فيه ثلاث غرف ، ثم اصدر اليه تعليماته . وفى خلال ذلك كانت « أوليفيا » تدرس « دافيد » ، فوجدته يختلف تماما عن الفلام الخجول الذى عرفته .. انه الان رجل واثق من نفسه ، بل يكاد يكون على شىء من التعالى وقوة النفوذ .. صورة للرجل الذى طالما حلمت به !

ولما فرغ من الحمال ، قال لها فى لهجة تنم عن السيطرة :

ـ يحسن ان نبتعد اعن الشمس .. ان لنا سيارة فى الانتظار

خارج منطقة الميناء .وبعد أن نستريح فى الفندق ، نستطيع أن نفكر فيما ينبغى أن نفعله بعد ذلك . وانى اتمنى ان تكون لديك الرغبة للذهاب الى بونا فى اسرع وقت ، لان الجميع هناك متلهفون الى رؤيتك ..

واردف قائلا وهو يتقدمهما نحو السيارة ، بعد أن سلم مفاتيح الحقائب الى حمال الفندق :

ـ ان الهنود ليسوا اكثر أمانة من غيرهم من بنى البشر . ولكنك اذا وثقت بواحد منهم وعهدت اليه بعمل ما ، فانه يؤديه بأمانة ليس لها نظير !

وكانت « أوليفيا » تبدو له كفتاة غريبة عنه .. لقد تغيرت هى ايضا كثيرا .. تغيرت الى أحسن .. ازدادت جمالا ونضوجا وجاذبية .. ترى هل ستتوافر له الجرأة ـ حين ينفرد بها ـ على أخذها بين يديه ، والتهام شفتيها بهذه القبلة الحارة الطويلة التى عاش هذه السنوات كلها يحلم بها ؟!

لقد تمنى ذلك منذ ان وقعت نظراته عليها ، ولكنه لم يستطع .. لقد تعلم من المسز « فوردام » ـ زوجة راعى كنيسة بونا ـ ان الهنود لاينظرون الى هذه الفراميات بنفس البساطة التى ينظر بها الغربيون .. وانه لا يزال يذكر قول المسز « فوردام » فى هذا الشأن :

ـ ان الهنود لم يألفوا بعد حريتنا فى ممارسة العلاقات الجنسية .. بل انهم لايقبلون أن يروا شابا ـ ولو كان أوروبيا ـ ينفرد مع اية فتاة ، ولو كانت أوروبية ، فى مكان عام . ولهذا ارجو ان يتم الزواج بينك وبين خطيبتك عند حضورها فى أسرع وقت ..

وركب الجميع السيارة ... واحس « دافيد » بجسم «أوليفيا» ملتصقا بجسمه رغم الملابس .. وخيل اليه ان دماءه تحولت الى نيران تندلع فى عروقه ، ولكنه لم يستطع الا ان يتناول يدها بين يديه ثم يتحسسها فى رفق وهيام ، وهو يحلم باللحظة التى ينفرد فيها معها ..

وحانت هذه اللحظة عندما صعد معها الى الغرفات المحجوزة بالطابق الثانى من الفندق . وكانت مسز « ديسارد » قد دخلت

الغرفة المخصصة لها لتشرف على وضع الحقائب فى اماكنها . ودخل هو مع « أوليفيا » الغرفة التالية ، ثم اغلق بابها بقدمه ، وقال :

ـ هذه هى غرفتك يا « أوليفيا » .. أما غرفتى فهى فى الجانب الآخر ..

ثم تناولها فجأة بين ذراعيه ، وقبل شفتيها تلك القبلة الحارة الطويلة التى عاش سنوات يحلم بها .. !

وسمع صوت المسز « ديسارد » تقول :

ـ « اوليفيا » ! اين انت ؟ ان الحمال يريد أن يحمل اليك حقائبك ..

وانتزعت « اوليفيا » نفسها من ذراعى « دافيد » بسرعة وهى تلهث .. ولكنها استطاعت قبل ان تنصرف من الغرفة ، أن تلقى على «دافيد» نظرات كلها الحب ، والرضى ، والأمل فى الساعة التى يغلق عليهما فيها باب واحد ..

وأحست أن كل شيء سوف يسير على خير ما تحب وترجو ..

***

وتم الزواج بعد أسبوع ..

وامتلأت كنيسة بلدة بونا بعدد كبير من الهنود المسيحيين . .

وكانوا جالسين ـ كالمعتاد ـ على أرضية صحن الكنيسة ، يتهامسون ويتبادلون الآراء عن هذه الامريكية الحسناء الرقيقة التى جاءت من « آخر الدنيا » لتتزوج الشاب الامريكى ، ابن المليونير ، الذى كرس حياته من أجلهم ..

وسارت « أوليفيا » فى الممر الضيق بين الجموع الجالسة فى ازدحام . ولم يكن يبدو على وجهها انها ترى شيئا من الوجوه المرفوعة اليها ، أو المطلة عليها من خارج النوافذ .. وانما كانت نظراتها مركزة على وجه « دافيد » الواقف بجوار المحراب فى انتظارها ، بينما وقف بجانبه صديقه الهندى الثرى « داريا » وعلى يمينه وقف المستر « فوردام » فى ملابسه الكهنوتية استعدادا لعقد القران

وكان وجه « أوليفيا » شاحبا ، وهى تسير مرفوعة الرأس . .

ولكن احدا لم يلاحظ شحوبها وهى تسدل على وجهها هذا النقاب الأبيض الشفاف . أما « دافيد » ، فقد حرص على ان يشيح بنظراته

عنها ـ بعد نظرته الاولى اليها عند دخولها ـ حتى لا يثير نفور الهنود منه . وكانت المسز « فوردام » ـ زوجة القسيس ـ تسير بجانبها ، بينما راحت احدى فتيات الارسالية تعزف على الارغن انشودة الزفاف . .

وتوقف العزف أخيرا ، عند ما وقفت « أوليفيا » مع « دافيد » أمام المستر « فوردام » الذى راح يقوم بمراسم عقد الزواج ..

اما المسز « ديسارد » ـ ام العروس ـ فقد كانت واقفة ترتعد ، وترجو ان يتم الزواج بسرعة حتى تستعد للرحيل الى بلادها . .

ذلك لأنها عثرت ـ فى ذلك الصباح فقط ـ على عقرب بين ملابسها ولولا انها فطنت اليه قبل ان يلدغها ، لحدث ما كانت تخشاه من بقائها فى الهند ..

وراحت تغمغم لنفسها ، وهى تسير وراء العروسين فى طريق الخروج من الكنيسة : « بعد أسبوع ـ لا .. بعد يومين اثنين ـ ساكون فى طريق العودة الى وطنى »

***

وقالت « أوليفيا » بعد أن مضى على زواجها أربعة أيام : « مسكينة امى »

وفوجىء « دافيد » بهذه العبارة ، فقال لها : « لماذا ؟ »

فأشارت « أوليفيا » الى الآكام الخضراء المحيطة ببلدة بونا ، وقالت :

ـ لأنى كنت أتمنى لو أنها رأت هذا الجمال كله .. انها بعد ان رحلت ، لن تصدق ان الهند ليست كما تصورتها !

فقال « دافيد » : « ولكن الكثير فى الهند لا يختلف عما تصورته »

فقالت « أوليفيا » فى اصرار : « مهما تكن المساوىء والوان التخلف ، فانها بلاد ساحرة بفضل هذا الجمال »

وكانت « أوليفيا » تتحدث وهى تشعر بالسعادة الغامرة . .

سعادة الفتاة التى عرفت أخيرا أنها تحب حقا ، وكانت تخشى ان يكون حبها مجرد وهم أوسراب! ..انها تعرف الآن أن «دافيد» يحبها بكل ما يملك من طاقة على الحب ، وتعرف فى الوقت نفسه أنها تبادله هذا الحب بأقوى منه .. بل انها لا تكاد تصدق أن هذا الرجل

القوى المسيطر على كل من حوله ، هو نفسه ذلك الفلام المراهق الخجول الذى وضع يوما قلبه عند قدميها ! .. ان سعادتها لا تنبع من حبها فقط .. وانما من استعدادها لأن تهب نفسها ، وحياتها ، وكل نبضة فى جسمها لهذا الرجل القوى الناضج الرزين الذى جعلها تعرف منذ اللحظة الاولى بعد الزواج ، ان حياتهما معا لن تكون حبا خالصا ، وانما سيمتزج فيها الحب بالعمل ، والعمل بالعبادة .. وان من حقه ان ينفرد بنفسه كلما اراد ، وان عليها الا تظن ان حبه لها قد فتر أو ضعف اذا انتزعته شواغل العمل منها ساعات أو أياما باكملها ٠٠ !

وفاض الحب فى قلبها فى تلك اللحظة ، فلم يسعها الا ان تخفف منه حتى لا تختنق ، فقالت وهى تطوقه بذراعيها : « لشد ما أحبك يا دافيد ! »

وكانا عندئذ جالسين فى شرفة منزل « دافيد » الجبلى .. وكان المنزل يقوم على ربوة مرتفعة تحيط به الاشجار العالية التى تكاد أغصانها أن تظلل سقفه ، وكانت المناظر الطبيعية من تلال وآكام ووديان وانهار تخلب الالباب ..

ونهضت من مكانها ، وركعت أمامه .. ودفنت وجهها فى حجره وهى لاتزال تغمغم : « اننى اكاد افقد عقلى من فرط الشعور بحبك »

ورفع وجهها فى رفق ، ونظر الى عينيها ، ورأى فيهما الحب ، بل التقديس ، مطلا بوضوح . وخامره الشك برهة .. انه لايكاد يصدق ان هذه هى « اوليفيا » نفسها .. « اوليفيا » التى أحبها الى درجة العبادة يوما ولكنها سخرت من حبه .. اما الآن ، فانها ــ بفضل الله ورحمته ــ اصبحت تبادله هذا الحب بما هو اقوى منه !

لا شك ان الله انعم عليه بهذا كله ، لأنها لو لم تستسلم له تماما ، وتعترف بحبها له على هذا النحو الواضح الصريح ، لاضطر الى بذل الجهود المضنية ليظفر بحبها فى النهاية .. حبها هذا الواضح . ولكن هل كانت اعماله وشواغله الكثيرة ، ورسالته التى يعيش من اجلها ، تتيح له ان يبذل مثل هذه الجهود ليظفر فى النهاية بحب المراة التى تزوجها ؟ !

شكرا لله ! ..

انه الآن مطمئن الى حبها .. انه فى غير حاجة لأن يبذل اى جهد كى يظفر بحبها .. ان له الآن مطلق الحرية فى أن يحقق رسالته بقلب خال من الشكوك والاوهام ٠٠ وان حبه لها ــ من ثم ــ لون من العبادة والقداسة لانها لم تحاول ان تفنيه فيها . ان قلبه سوف يظل هادئا صافيا مكرسا لعبادة الله ، لا لعبادة « اوليفيا » . وانه لهذا يشعر بالرضى والسعادة .. لأنه استطاع ان يحقق التوازن بين حبه لـ « اوليفيا » وحبه لله ..

وقال لها أخيرا ، وهو ينظر الى عينيها المبتهلتين :

ــ أحمد الله لأنك تحبيننى على هذا النحو ..

فقالت بدهشة :

ــ ولماذا تحمد الله ؟

ــ لأنك لو لم تحبيننى هكذا لكان هناك احتمال كبير فى ضياعى وضياع آمالى فى الحياة ٠٠ !

ولم تستطع ان تفهم حقيقة ما كان يعنيه من هذه العبارة .. لم تستطع أن تدرك أن هناك ــ فى أعماقه ــ من ينافسها فى حبه لها ٠٠ وأنها ليست الاولى فى عواطفه ٠٠ فهى ، اذا كانت قلبه ، الا انها ليست روحه !

وهمست له قائلة : « خذنى بين ذراعيك »

واخذها بين ذراعيه وهو مطمئن الى ان احدا لن يراهما فى ظلال الغروب .. وظلا هكذا برهة حتى تحول شفق الغروب بسرعة الى ظلمة الليل .. وكانت السعادة تتدفق فى قلبيهما .. سعادة الرجل والمراة المرتبطين بعقد الزواج ، واللذين من حقهما أن ينعما بالحب وبكل ما فى الحب من متع ولذات !

ولم يشعر ــ وهو يحملها بين ذراعيه الى المخدع ــ بأنه يخون رسالته أوعبادته لله ٠٠ وانما شعر أنه ــ بمثل هذا الحب المشروع ــ يزيد من قوته وعزيمته لتحقيق رسالته ، ويزيد من تطهير جسده ، لتزداد روحه صفاء وتألقا واشراقا ..

***

ودهشت « أوليفيا » حين وجدت نفسها تحب الهند ، او على الاقل ، هذه البقعة من الهند . وكان الخدم ــ فى كل صباح ــ

يحملون اليها الشاى بأسلوب ينم عن الخبرة الطويلة فى الخدمة الممتازة . وقد تراخت فى هذا الصباح فى فراشها الوردى الوثير تنتظر حضور الخادم بخطواته الهادئة ، حاملا الشاى واللبن والفطائر والزبد . وكان الخادم — وهو ابن الطاهى — غلاما يافعا ، اسمر اللون ، باسم الوجه دائما . فلما وضع ما يحمل على النضد القائم بجوار السرير ، قالت بصوت ناعس : « شكرا »

وتراجع الخادم فى حذر حتى لا يقطع عليها نعاسها .. وكان « دافيد » قبل ذلك بساعة ، قد غادر الفراش الكبير ، ومضى — بعد ان اغتسل — ليتنسم هواء الفجر الندى ، ثم ليجلس الى مكتبه بعد ان ادى عبادات الصباح ..

ونهضت هى — اخيرا — من فراشها ، وفحصت الشبشب الفضى قبل أن تضعه فى قدميها خشية ان تكون فى داخله حشرة سامة . . فلما اطمانت ، انتعلته ثم وقفت امام المرآة لتصفف شعرها وهى تشعر بالحرارة الشديدة تسرى فى الغرفة الفسيحة ، رغم انه لم يكن قد مضى على شروق الشمس غير ساعة واحدة ..

وقصدت الحمام بعد ذلك ، فاغتسلت بالماء الساخن ، ثم نظفت اسنانها وهى تستعمل ماء مغليا فى ابريق .. لانها تعلمت منذ اللحظة الاولى انه من الخطر الشديد أن تستعمل ماء — أيا كان الغرض منه — دون ان يغلى جيدا

وعادت الى غرفتها ، وراحت ترتدى ملابس الصباح .. وكانت وهى ترتديها تحتسى الشاى الهندى العاطر ، وتقضم الخبز المجمر المغطى بطبقة من الزبد المستورد فى علب من استراليا

وغادرت الغرفة تاركة وراءها كل شىء ليرتبه الخدم .. وكان الخدم فى البيت كثيرين ، لا تعرف لهم عددا .. بعضهم مأجور ، وبعضهم يكتفى بتناول فضلات الطعام نظير خدمته . ولم تحاول هى ان تعرف عدد هؤلاء الخدم . ولعل المسز « فوردام » لم تكن راضية عن تصرفاتها هذه التى تتسم بالبذخ ، والتى لا تتناسب مع تصرفاتها هى — المسز فوردام — التى تدير بها شئون بيتها فى حدود مرتب زوجها القسيس . أما « أوليفيا » فكان الامر معها على العكس . لقد وضع المستر « ماكارد » العجوز ، والد « دافيد » ، رصيدا ضخما فى

بنك بومباى ليكون تحت تصرفها هى وزوجها . ولم يكن عليها الا ان تطلب من المال ما تريد ، فيكون تحت امرها فورا . وقد سعدت هى بهذا كله ، ولا سيما وقد ادركت أن « دافيد » لا يحاسبها على شىء .. بل ولا يسألها — فى الناحية المالية — عن شىء ..

ولما حاول المستر والمسز « فوردام » أن يلفتا نظره الى بذخ « اوليفيا » الذى لا يتفق مع حياة الذين يكرسون انفسهم لاهداف سامية فى الحياة ، قال لهما فى حزم :

— لقد طلبت من « اوليفيا » أن تكون زوجتى لا أن تكون مبشرة ، لان هذا ليس فى مقدورى !

وقد حاولت « أوليفيا » كثيرا أن تكسب رضاء رجال ونساء الارسالية المتزمتين .. وكانت تميل فعلا الى المستر والمسز « فوردام » وتعرف انهما طيبان ، وان كانا يحبان ان يصلحا امور الناس على طريقتهما الخاصة ..

وهزت « أوليفيا » كتفيها وهى تتذكر الجهود التى يبذلها رجال ونساء الارسالية لتحويل هؤلاء البؤساء الفقراء المعدمين الى مسيحيين .. لانها فى قرارة نفسها ، كانت تعتقد أن هذه الجهود كلها ضائعة مع هؤلاء المنبوذين من الديانات الاخرى..

ولهذا السبب نفسه ، سألت « دافيد » ذات مرة لماذا لم يحاولوا أن يحولوا ذلك الهندى الثرى الذكى المستر « داريا » الى المسيحية ، لا سيما وقد ادركت ان هذه احدى امنيات المستر والمسز « فوردام » . فأجابها قائلا :

— لقد عرف كيف يرد علينا « داريا » ردا أسكتنا عندما جادلناه فى هذا الشأن يوما .. قال أن عقيدة الانسان شىء يخصه كالزواج تماما .. ومادام هو يأبى أن يتدخل لكى يحول احدنا الى الهندوكية مثلا ، فكذلك ينتظر الا يتدخل احد ليحاول تحويله الى المسيحية

وقد اجابت « أوليفيا » على « دافيد » عندئذ :

— أرجوك اذن ان تترك داريا وشأنه ..

ورغم انها تعرفت بذلك الهندى الذى ينتمى الى طبقة السادة الاثرياء جدا — اى المستر « داريا » — منذ أول يوم وصلت فيه الى بونا ، فانها لم تكن قد تعرفت بعد بزوجته « ليلا مانى » . وقد قال

لها فى هذا الشأن يوما :

ــ عندما تستقر بك الامور هنا بعد شهر العسل ، سوف يكون لى شرف دعوتك الى بيتى لتتعرفى على « ليلا مانو »

وقد سألت « أوليفيا » زوجها « دافيد » فى اليوم السابق فقط ، لماذا لم يدعها « داريا » الى بيته كما وعد ، فقال لها :

ــ ان « داريا » يحب دائما ان يفعل ما يحلو له يا « أوليفيا » ·· وما عليك الا أن تتذرعى بالصبر ··

وكان ــ وهو يجيب عليها ــ يبدو بعيدا عنها بأفكاره ، حازما فى نبرات صوته ، شاردا بنظراته .. لقد كان فى تلك اللحظة « دافيد » ذا الرسالة الانسانية ، وليس العاشق الولهان .. ولكنها من سعادتها لم تغضب أو تحزن

***

وغادرت الغرفة وهذه الذكريات تدور برأسها .. وسارت على غير هدى فى غرف البيت حيث لاحظت ــ كالمعتاد كل صباح ــ ان الخدم اغلقوا الخصاصات الخشبية للنوافذ ليمنعوا وهج الشمس من التسلل الى الداخل ·· ومن ثم بدا البيت ظليلا ، وان يكن رطيبا اما الارضيات الخشبية فكانت لامعة مصقولة ، والاثاث نظيف ، وآنية الزهر وضعت بها زهور جديدة ناضرة .. وظلت تسير فى جنبات البيت الذى كان أثاثه بسيطا خفيفا دقيق الصنع ، لان « أوليفيا » أعربت فى رسائلها ل « دافيد » عن تفضيلها لهذا اللون من الاثاث ، وانها لا تطيق البيت المزدحم بالاثاث الضخم الثقيل

وكانت تبحث عن « دافيد » وهى تعلم أن الامل ضعيف فى العثور عليه ، لانه قد يكون فى تلك اللحظة ــ كعادته ــ فى اى مكان .. فى ركن من المنطقة التى سيقيم فيها مشروعاته الكبيرة ، أو مع زائر مبكر فى ركن من الحديقة الواسعة ، أو مع أحد مهندسى مشروعاته المعماريين ··

وكانت « أوليفيا » تعلم أن « دافيد » ، مثل أبيه ، قد قرر أن يشق طريقه فى الحياة معتمدا على نفسه ، مستقلا برأيه ·· ولكن من أجل هدف مختلف جدا ·· فاذا كان والده قد نجح فى تحقيق هدفه ، وجمع ثروة لا يعرف هو نفسه مقدارها على وجه التحديد ، فان

« دافيد » كان يعتزم تحقيق هدف من نوع آخر ·· وهو أن يقيم أكبر وحدة ثقافية علاجية دينية فى بلاد الهند كلها · وكان يرجو أن تغدو هذه الوحدة حديث الهند كلها بفضل ملايين « آل ماكارد » ..

ولكن .. ماذا كان فى مقدور « دافيد » أن يفعل مثلا لو انه كان ابن رجل فقير ؟ !

هكذا سألت « أوليفيا » نفسها دون أن تعرف الاجابة ·· !

وعثرت عليه جالسا الى مكتبه الضخم الذى أعده خصيصا ليدرس عليه مشروعاته مع معاونيه .. وكان الجالس معه فى تلك اللحظة مهندسا معماريا شابا مولدا ــ من والد انجليزى وأم هندية ــ وكان الاثنان مشغولين بدراسة انشاء دار أخرى لاقامة الطلبة ·· وهى دار رأى « دافيد » اضافتها الى المشروع ··

ورآها الشاب المولد أولا ·· وكان شابا طويلا رشيق القوام خمرى البشرة ، تنم زرقة عينيه ولون شعره البنى عن حقيقته كابن لرجل انجليزى وأم هندية · وكان ــ فضلا عن جنسيته الانجليزية ــ يحرص على أن يبدو انجليزيا فى كل شىء .. يذكر دائما اباه ، ويتعمد دائما اغفال ذكر أمه !

قال لها بلهجته الانجليزية السليمة التى تنم عن دراسته فى اكسفورد :

ــ طاب صباحك يا مسز « ماكارد » ·· لقد كنت أرجو أن تأتى فى اية لحظة ، لانى أعلم أن لك ذوقا رفيعا فى الشئون الهندسية ، وليس أحب للمهندس منا أن يبصره انسان مثقف مثلك ببعض أخطائه

وابتسمت « أوليفيا » ومدت يدها ، وهى تشعر بقوة فتنتها وروعة جاذبيتها .. لقد جعلتها الهند اكثر أنوثة وفتنة ، فتراخت عضلات جسمها بعض الشىء فلم يعد مشدودا أو متوترا ·· وامتلأت شفتاها قليلا ، فلم تعودا مزمومتين كما كانتا من قبل · ولكن ، ربما رجع هذا الى زواجها من الرجل الذى وهبته قلبها مع جسمها · ومهما كان السبب الذى جعل « دافيد » رجلا قويا مسيطرا واثقا من نفسه ، فانها تشعر بالسعادة الغامرة لخضوعها له ، واستسلامها بين يديه · ويبدو انها عاشت حياتها تحلم بالرجل الذى تخضع له ، وها هو ذا حلمها أخيرا قد تحقق

وقال لها « دافيد » بعد أن فرغت من مصافحة المهندس الشاب :

ـ طاب صباحك يا « أوليفيا » ..

وكان حريصا على الا يكشف عن حبه العميق لزوجته أمام الهنود أنفسهم .. ثم أردف قائلا :

ـ اجلسي وزودينا بآرائك كما يقول « رمزي » .. لسوف أشرح لك الفكرة أولا .. انني أريد أن أقيم هنا ..

ثم أشار بيده الى مساحة على الخريطة ، واستطرد يقول :

ـ .. بناية مربعة ضخمة تتوسط فناءها الكبير نافورة من المرمر تنبثق منها المياه على اشكال مختلفة .. انني احرص على تزويد المباني التى أقيمها بمظاهر الجمال التى تغرى الشبان والفتيات بالحضور الينا

فقالت « أوليفيا » وهى تنحنى عليه ، وتشعر بالمتعة من الضغط على كتفه :

ـ وماذا بعد أن توقع بهم فى مصيدتك ؟

فقال بحماس :

ـ سأعرف كيف أجعلهم ينظرون الى الحياة هذه النظرة السليمة التى لا تميز بين البشر وتجعل من بينهم فريقا من المنبوذين

فهز « رمزي » كتفيه فى ارتياب ، وقال :

ـ لسوف تحدث خلافات كثيرة لهذا السبب ، لان الذين سيحضرون اليك هم من الطائفة التى يتهددها النبذ بين الحين والآخر .. ان طائفة الماراثى كما تعلم يا مستر « ماكارد » طائفة قوية واسعة النفوذ ولكنها متشبعة بالاساطير والخرافات . ويكفى أن تنطلق خرافة عن مشروعاتك، فتجعلهم يتشاءمون منك ، فينهار كل شىء

فقال « دافيد » ببساطة : « سوف نرى .. »

وقالت « أوليفيا » وهى تزداد بصدرها ضغطا على كتف زوجها وتشير الى علامة على الخريطة :

ـ وما هذه العلامة .. ؟

ـ انها المكان الذى أريد أن أقيم فيه دارا لاقامة الطالبات

وتدخل « رمزي » المهندس الشاب ، قائلا فى صوت ينم عن الاحتجاج :

ـ اننى لا أحب أن أنتقد احدا بطبيعتى .. ولكنى أشعر يا مستر

« ماكارد » انك متفائل اكثر مما ينبغى . فأنا لا أتصور أن الهنود سوف يرسلون بناتهم للاقامة فى مكان يقيم فيه الشبان !

فقال « دافيد » بصوت حازم :

ـ مادمت قد آليت على نفسى أن أساهم فى نهضة البلاد والعمل على مسايرتها لركب الحضارة والمدنية ، فلابد أن أواجه جميع الاحتمالات. وانى اعتقد أنه لا جدوى من أية محاولة ، مالم تكن المرأة متعلمة ، بعيدة عن الخرافات وأوهام الجهالة ..

وبعد أن تبادلا بعض الاراء فى هذا الشأن ، استأذن المهندس الشاب فى الانصراف .. وبعد خروجه قالت « أوليفيا » فى عطف :

ـ مسكين «رمزي» هذا ! .. انه يحاول جاهدا أن يكون انجليزيا !

فرد زوجها قائلا :

ـ هذه حماقة منه .. انه بهذه المحاولات يثير سخط الهنود عليه ، وفى الوقت نفسه لن يكون فى نظر الانجليز الا رجلا مولدا ..

فهزت « أوليفيا » كتفيها وقالت :

ـ ليكن ما يريد أن يكون .. ان له الحرية فى اختيار طريقه

ثم تلكأت قليلا وهى ترجو أن يتذكر « دافيد » قبلة الصباح .. واذا به ينهض ويبسط ذراعيه اليها ، فترتمى بين أحضانه ، وتغيب معه فى قبلة حارة

وكانت تلك الاشهر الاولى من الحب عذبة الى حد يدير الرأس ، ويملأ القلب بشىء من الخوف مما قد تأتى به الايام .. لان الانسان بطبعه يشعر أن القدر لا يرضيه قط أن ينغمر الانسان ـ أى انسان ـ فى هذا اللون من السعادة المطلقة !

وظلا فى غيبوبة العناق حتى سمعا وقع أقدام تقترب من باب غرفة المكتب ، فاسرعا بالانفصال .. وما لبث أن أقبل أحد الخدم يحمل رسالة على صفحة من الفضة

وفض « دافيد » الرسالة ، ثم قال بعد أن قرأ سطورها القليلة :

ـ انها دعوة من صديقنا « داريا » لتناول العشاء معه الليلة ..

الفصل الثانى

ليلا ما ني الحسناء

كان « داريا » واقفا لاستقبالهما عند بوابة قصره الفاخر ٠٠ وقد لاحظت « أوليفيا » فى تلك اللحظة أنها ترى « داريا » الهندى الصميم ٠٠٠ ولم يرجع هذا الى ملابسه الوطنية التى كان يرتديها - رغم أنها كانت فاخرة - وانما الى نظراته ، وسماته ووقاره ، وتصرفاته التى تحررت من تلك السطحية السابقة ، والى تحيته لها ولزوجها بوضع كفيه متقابلين أمامهما بالطريقة الهندية التقليدية ٠٠ وهى التحية التى ترمز - كما قال لها يوما - الى ايمان الانسان بوجود ذلك القبس الالهى فى النفس البشرية . ولكنها شعرت ، مع ذلك ، أن هذه التحية التقليدية جعلته يبدو غريبا عنها ، ومن ثم خامرها شعور بالخجل والارتباك ، وقد حاولت أن تخفى هذا الشعور ، ولكنها لم تستطع !

وقال « داريا » بوقار :

- تفضلا بالدخول ٠٠ مرحبا بكما فى بيتى ٠٠

وتقدمهما الى غرفة فسيحة ذات ستائر مسدلة على النوافذ ،وسجادة فاخرة مبسوطة على الارض ٠٠ فوقها حشايا من ريش النعام المكسو بالحرير الفاخر ٠ وبعد أن دعاهما للجلوس ، جلس بجوارهما ، وصفق بيديه .. فاقبل الخدم يحملون صحاف الفاكهة والحلوى والشراب المعطر ، ووضعوا هذا كله أمام الضيفين .. وبعد أن تحدث المضيف مع أحد الخدم بصوت خافت ، دعا ضيفيه الى تناول الطعام ٠٠

ولبى « دافيد » الدعوة ببساطة ٠٠ ودهشت « أوليفيا » ولكنها حذت حذوه ٠ ورغم أنها لم تكن قد ذاقت ألوان الطعام الهندى من قبل ، الا أنها وجدتها لذيذة ٠٠ ولا سيما أصناف الحلوى من فطائر صغيرة ورقائق ناعمة وكعك مصنوع بالشهد ، وكرات خبز محشوة

بالحلوى المعطرة .. هذا عدا ثمار الفاكهة الغريبة المصفوفة على أوراق الشجر بنظام بديع ...

وقال « دافيد » متبسطا :

— ان هذا كله لتكريمك يا « أوليفيا » .. فان « داريا » لم يسبق أن احتفى بى على هذا النحو من السخاء !

ونظر الى « داريا » معابثا .. وضحك المضيف عاليـــــا ، ثم رفع العمامة الفاخرة عن رأسه ، ووضعهـــا بجانبه ، وراح يتناول بعض الحلوى من الصحاف الموضوعة أمام صديقه « دافيد » .. ثم قال :

— ان تكريمنا لك ياليدى « أوليفيا » رمز لتكريم المراة بوجه عام . ولو أنك كنت سيدة هندية عصرية — لانك لو كنت غير هذا لما رأيناك بيننا الان — لكان تكريمنا لك على هذا النحو نفسه ..

ثم نظر الى الباب الكبير المفضى الى داخل القصر ، وأردف قائلا :

— آه .. هذه هى زوجتى وطفلاى قد حضروا ..

وانفرجت الستائر المخملية عند الباب .. ووقفت بينها «ليلامانى» وعلى جانبيها طفلاها . وكان « دافيد » ، كلما تذكرها بعد ذلك ، تذكرها وهى فى هذا الوضع الجذاب .. فتاة طويلة القامة ، رشيقة الجسم ، جميلة ، خجول ، خمرية اللون ، متشحة الجسم بســارى حريرى من صناعة بلدها .. بونا ، أصفر اللون ، موشى الاطـــراف بالاسلاك الذهبية

وكانت قد رفعت طرفه الاعلى ليغطى جانبا من شعرها الاســود الناعم ، بينما تألقت عيناها السوداوان الواسعتان بنظرات مشحونة بالفتنة الشرقية الخلابة .. أما شفتاها الصغيرتان المتلئتان ، فكانتا مدممتين باللون القرمزى ، وفى وسط جبينها تلك الدائرة القرمزية الصغيرة التى تنم عن عراقة المحتد ..

ونهض « دافيد » واقفا ، وتبعته « أوليفيا » التى مدت يدها بحركة آلية لا شعورية نحو الشابة الشرقية الحسناء ..

وقال « داريا » لزوجته بلهجة آمرة :

— تعالى يا « ليلامانى » .. هاهما صديقانا .. وهذه « أوليفيا »

وتقدمت « ليلامانى » ببطء وهى تضع فى قدميها صندلا ذهبيا ، بينما ظل طفلاها متعلقين بها ..

وعاد زوجها يقول بلغته الوطنية :

— يمكنك أن تصافحى السيدة ، ولكن لا ضرورة لذلك مع السيد !

ورغم النبرات الآمرة فى صوت « داريا » فقد كانت عيناه تنمان عن الحنان والحب ..

ومدت « ليلامانى » يدها الصغيرة الى « أوليفيا » ، وكانت اظافرها انيقة مدببة مطلية بنفس اللون القرمزى الذى طلت به شفتيها

وأمرها « داريا » قائلا : « قولى .. أوليفيا »

فقالت « ليلامانى » ببطء : « أو .. ليفيا »

وردت « أوليفيا » قائلة وهى تصــافح اليد المبسوطة اليها : « ليلامانى »

وقال « داريا » ببساطة وهو يدنى اليه طفليه :

— هذان هما طفلانا الشقيان ..

ثم أردف وهو يمسح على شعر كل منهما :

— هذا فى الخامسة من عمره ، وهذا فى الرابعة .. وهناك ثالث — طفل او طفلة — فى الطريق بعد ستة اشهر منذ الان ..

وانحنى الطفل الاكبر نحو صحاف « أوليفيا » بفضول ، فقدمت اليه قطعة حلوى .. وسرعان ما بسط الاصغر يده السمراء الدقيقة ، فوضعت فيها « أوليفيا » قطعة أخرى .. وهنا قال والدهما بلهجته الامرة :

— هذا يكفى .. انصرفا الان ، والعبا فى الحديقة ..

وسرعان ما أطاعا الامر ، فانصرفا وكل منهما ممسك بيد الآخر ، وقطعة الحلوى فى فمه ..

وجلست « ليلامانى » بجوار زوجها ، وهى حريصة ألا تلمسه أمام أعين الغير .. ونظر هو اليها فى حب وحنان ، وقال :

— انها تحسن السلوك والتصرف .. زوجتى هذه يا « أوليفيا » .. ولعلك لا تصدقين اذا قلت لك انها عاشت فى شــبه عزلة كاملة حتى تزوجتنى . ان الفتاة فى العائلات الكبيرة المحافظة لا ترى رجلا غريبا عنها أبدا حتى تتزوج .. وهى اذا خرجت من البيت مع لفيف من النساء ، فانها دائما تستقل معهن مركبة مسدلة الستائر على نوافذها وأذكر أن والدها حين استورد مركبة انجليزية فاخرة ، أمر بطلاء زجاج نوافذها حتى لا يرى أحد من الخارج الذين بداخلها ، والعكس

صحيح .. أليس كذلك يا « ليلامانى » ؟

ولما سمعت « ليلامانى » اسمها ، ابتسمت فى حياء وأومأت برأسها، ولكنها لم تقل شيئا ..

وعاد زوجها يقول معابثا :

ــ والان يا « ليلامانى » ! يجب أن تتحدثى ببضع كلمات انجليزية ... لقد ظللت أعلمك هذه اللغة منذ أسابيع

ثم أردف قائلا لـ « أوليفيا » :

ــ قلت لها ياليدى « أوليفيا » ان عليها أن تتعلم الانجليزية بنفس السرعة التى تتعلمين بها أنت اللغة المارائية .. اليس هذا عدلا ؟

فقالت « أوليفيا » وهى تبتسم لـ « ليلامانى » :

ــ لا اظن .. لان اللغة الانجليزية اسهل كثيرا ..

فهتف « داريا » ضاحكا : « لا .. لا .. هذا غير معقول .. »

وهكذا استمر الحديث دائرا بينهم على هذا النحو من البساطة والخفة ، واخذت « ليلامانى » ازاء معابثات زوجها لها ، تتخلى تدريجيا عن حيائها الشديد .. واذا هى تندمج شيئا فشيئا فى جو المعابثة ، بل وتدفعه فى صدره ذات مرة بيديها الرقيقتين ، وهى تضحك بصوت كرنين الفضة ..

وراحت « أوليفيا » تتطلع الى « ليلامانى » مفتونة مسحورة .. انها لم تر فى حياتها امرأة من هذا الطراز العجيب .. فرغم انها ــ أى « ليلا مانى » ــ لم تكن تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها ، فقد بدت ناضجة ، موفورة الانوثة ، عارمة الجاذبية ، تحس ان كل كيانها مركز فى انوثتها ..

وربتت « ليلا مانى » على أسفل بطنها المستديرة ، ثم لمست بطن « أوليفيا » المفلطحة بأصابع متحسسة ، وقالت مستفهمة : « نعم؟!»

فهزت « أوليفيا » رأسها وقالت : « لا »

وعادت « ليلا مانى » تقول بصوت كله الامل : « قريبا ؟ »

فردت « أوليفيا » وهى تشعر ببعض الارتباك : « ربما .. »

وضحك « داريا » قائلا :

ــ ارجوك ياليدى « أوليفيا » أن تلتمسى لها العذر .. فان « ليلامانى » ، كأية امرأة هندية لم تفسدها المدنية الغربية ، ترى

ان اهم شىء فى حياتها هو قدرتها على انجاب الابناء . انها تعتبر هذا دليلا على اهليتها كامرأة . والهندية الاصيلة تفضل الموت على العقم ... فهل يعسر عليك فهم هذه الحقيقة ؟!

فقالت « أوليفيا » بصراحة : « أعتقد هذا »

وكانت « ليلا مانى » عندئذ ترقبها فى امعان بنظراتها المدهوشة الغامضة ، وكانت فى الواقع تتطلع بجراة الى شعر « أوليفيا » الذهبى ، والى وجهها الناصع البياض ، والى بشرتها الناعمة ، والى قوامها النحيل . ثم مدت يدها ولمست طرفا من ثوبها الحريرى الازرق ، ثم تناولت يد « أوليفيا » بين يديها ، وراحت تربت عليها بيدها اليمنى وهى تبتسم لها فى مودة وصفاء

ونظر الرجلان الى هذا كله فى رضى وامتاع ، بينما كان « داريا » يقول :

ــ ان « ليلا مانى » تريد أن تقول لك ياليدى « أوليفيا » انها تحبك ، وانها تريد أن تكون اختا لك . ولاداعى للخجل يا ليدى « اوليفيا » .. فاننا هنا نعتقد ان الحب هو خير هدية نقدمها لغيرنا من الناس ، وانه لا ينبغى أن نكتمه اذا كنا نكنه للغير فى قلوبنا ... وأؤكد لك ان « ليلا مانى » لاتظهر حبها لغيرك بمثل هذه السهولة .. انها فتاة ذات كبرياء وتحفظ

وردت « أوليفيا » عليه قائلة :

ــ قل لها اننى ايضا احبها ويشرفنى ان اكون اختا لها .. وارجو ان تسمح هى لى بالتردد عليها بين الحين والاخر

ولم تستطع « أوليفيا » ان تقول اكثر من هذا .. ذلك انها كانت، فى الواقع ، تشعر بالارتباك الشديد فى تلك اللحظات . كانت تحس بمشاعر مختلفة غريبة تتصارع فى اعماق نفسها .. بمشاعر اخذت تذيب عواطف جامدة لم تكن تدرى انها حملتها ذات يوم . لقد بدات تحس بانها تتحول تدريجيا ، أمام هذه الفتاة الهندية ، الى نوع جديد من الانوثة الفياضة الناضجة .. وبدا لها ان مشاعر جديدة قد بدات تتفتح فى اعماق نفسها ، وأن عواطف حارة جديدة قد اخذت تتدفق فى كيانها وتضاعف مشاعر الانوثة فى نفسها .. ولم تدر فى تلك اللحظات هل هى راضية عن هذا ام ساخطة ، ولكن الشىء

المؤكد انها تمنت لو استطاعت أن تبدو فاتنة جذابة مثل «ليلا مانى» .. وان يجتمع فيها هذا المزيج الساحر من الحكمة والفتنة ، من الشباب والكهولة ، من البساطة والغموض ، من النضوج والبراءة ..

وظلت هذه المشاعر تصطرع فى أعماق نفسها حتى أجهدتها عند انتهاء الزيارة ، فانصرفت وهى تحس انها لا تزال فى حيرة وارتباك مما طرأ عليها من تغيير بسبب هذه الزيارة

***

فى تلك الليلة نفسها .. وبينما كان « دافيد » يستغرق تدريجيا فى النوم داخل الستائر الخفيفة المحيطة بفراشه الكبير فى غرفته الخاصة ، اذا به يصحو مدهوشا وهو يسمع حفيف أقدام زوجته العارية على ارضية الغرفة . ونهض فى فراشه جالسا وهو يذكر أن زوجته لم يسبق لها أن سارت فى الظلام ، وبقدمين عاريتين !

وقال بصوت هامس ، وهو يمد يده ليتناول علبة الثقاب حتى يشعل المصباح الموضوع دائما بجوار الفراش : « أوليفيا ! أهذا أنت ؟ .. »

فهمست قائلة : « نعم .. ولكن .. لاتوقد المصباح »

ــ لماذا ؟ ماذا حدث ؟

فقالت وهى تجلس على حافة فراشه :

ــ لا اعرف ! أوه .. دافيد .. هل تحبنى حقا ؟

ــ طبعا ياحبيبتى .. ان حبى لك يزداد كل يوم ..

ــ ولكنى اريد أن يزداد ... ويزداد ... ويشتعل كالنار ...

وكان فى صوتها رنة بكاء .. فلم يدر « دافيد » ماذا يفعل ،ولكنه رفع غلائل السرير ، ومد يديه وجذبها نحوه ، وهو يقول بصوت كله حب وحنان :

ــ ماذا بك ياحبيبتى ؟ لماذا تبكين .. هل تشعرين بالم ؟

ولم تجب عليه بشىء .. وانما تعلقت به وهى ترتجف وتبدو فى تصوره امراة جديدة مشبوبة العاطفة ، ملتهبة الدماء عارمة الانوثة ، لا تكف عن الهمس الحار : « ضمنى اليك .. ضمنى بكل قوتك .. اننى اكاد اختنق .. »

ولم يسعه الا ان يتجاوب معها بأعنف ماتكون العاطفة المشبوبة ،

بل المسعورة !

وعجب « دافيد » لنفسه .. انه لم يستسلم فى حياته لمثل هذه العاطفة المجنونة يوما . . ورغم أدراكه بشرعيتها ، الا انه أحس ان ماحدث لايليق بانسان له رسالة سامية فى الحياة .. بل لقد شعر انه ارتكب اثما ، وانه ماكان ينبغى أن يتجاوب مع أوليفيا فى أمر كهذا

ولكن ماذا دهاها ؟!.. انها حقا مشبوبة العواطف ، حارة الدماء ... ولكن لم يحدث منذ تزوجها أن وجدها على هذا النحو من الميل الجنسى العنيف ؟

وقرر فى ذات نفسه ان يكون أكثر سيطرة على عواطفه فى المستقبل ونهض اخيرا ، تاركا « أوليفيا » مستغرقة فى النوم ، ومضى الى الحمام حيث اغتسل ، ثم ارتدى ملابس نظيفة ، ومضى الى غرفة مكتبه ، وراح يقرا الكتاب المقدس . ولكن شعوره بالاثم جعله لايفهم شيئا من الكلمات المتراقصة امام عينيه . واخيرا طوى الكتاب وركع على ركبتيه ، وراح يبتهل وهو يتمتم : « غفرانك يارب »

وبعد فترة طويلة ، اخذت السكينة تتسلل الى نفسه كالضوء الهادىء الذى ينساب من شمس المصباح ليضىء أعالى الجبال ..

ورفع راسه اخيرا وقال :

ــ اللهم امنحنى القوة لاسيطر على عواطفى ..

***

وتحول الجو الى شىء من الاعتدال ــ بقدر مايمكن ان يعتدل الجو فى بلدة بونا ــ ولكن « أوليفيا » كانت ، رغم هذا ، تشعر بالضعف والتراخى والملل . فقد اخذت أيامها تمر على نمط واحد .. جميلة حقا ، ولكنها لاتتغير ــ ولا تعرف المفاجآت . وقد آلمها انها أصبحت اكثر كسلا واسترخاء حتى أصبحت تضيق باعداد الولائم والمآدب ردا على ماكان يقام لهما هنا وهناك . وكان أهم هذه الولائم تلك الوليمة التى أقامها « دافيد » لحاكم الاقليم الانجليزى ؛ وكان « دافيد » مصرا على أن تظل علاقاته بالحاكم الانجليزى على جانب كبير من المودة والصفاء ، حتى يتمكن من تحقيق أهدافه الانسانية فى هذه البلاد . وكانت الامور تزداد تحرجا بسبب الشعور الوطنى

الذى كان يزداد يوما بعد يوم ، ويسبب الشىء الكثير من الارتبـاك فى الدوائر الحكومية . وكانت هذه الدوائر ترتاب فى أن الامريكيين يعطفون على هذه الحركة القومية المتزايدة ويشجعونها سرا ،ويعملون على الاسراع بوصول الهند الى مرحلة الاستقلال

وقال الحاكم الانجليزى أثناء المأدبة :

ـ يسرنى ان اراك فى حالة طيبة يا «ماكارد»

وكانت « أوليفيا » جالسة فى الطرف المقابل للمائدة ترهف السمع لاجابة زوجها الذى قال بهدوء :

ـ اننى ياصاحب الفخامة ضد الثورات .. ولكن هذا لا يعنى اننى ضـــد التغيير ، لانى أبذل كل جهدى فى تعليم الشبان الهنود الذين سوف يتولون مقاليد الحكم فى بلادهم فى الوقت المناسب .. ان هدفى ان اساعد على تطوير البلاد فى ظل النظام والامن والاستقرار

فقال الحاكم فى تجلد :

ـ ليس هناك من يعترض على أمر كهذا . ونحن بطبيعة الحال لن نتأخر عن منح البلاد الحكم الذاتى عندما يصبح أهلها أكفـــاء لمثل هذه المهمة . وليس هناك شك فى أنهم ـ الان ـ لايصلحون لمثل هذه المهمة فاربعة اخماسهم جهلة أميون

وهنا قالت « أوليفيا » :

ـ اننى كثيرا ماتساءلت ياصاحب الفخامة لماذا لم ينتشر التعليم فى البلاد بعد ان ظلت خاضعة للحكم البريطانى مئات السنين ؟

ولم تجرؤ على أن توجه نظراتها الى « دافيد » ، وانما ركزتها على وجه الحاكم العام ، فى شىء من التحدى ..

وبعد برهة من الصمت ، قال الحاكم فى شىء من الحدة :

ـ ماذا تقولين يامسز « ماكارد » .. لا اظن انك تنشرين مثل هذه الاراء بين الاهالى هنا . ان الامر يحتاج الى مئات اخرى من السنين لتطوير البلاد .. تصورى حالتها يوم جئنا اليها ، ثم تذكرى كم استغرقنا من وقت لاقرار النظام فقط فى أنحاء البلاد . لقد احتجنا الى مائة عام لكى نستطيع أن نحكمها . ومع هـذا كله ، فلســـنا مسئولين تماما عن كل شبر فيها ؟ فلايزال هناك الامراء الوطنيون . ونحن لانحب أن نستخدم العنف فى عملية التطوير .. !

وكادت « أوليفيا » أن ترد على هذه المغالطات الواضحة ، ولكنها فوجئت ببعض المدعوين يحولون المناقشة الى اتجاهات اخـــرى ، وكأنها خطة مرسومة . ولم يسعها من ثم الا ان تلوذ بالصمت وتصغى للحديث الدائر .. وهى تأكل بشهية قوية لانها كانت تشعر بالجوع.. ولكنها لدهشتها ، كانت تشعر ايضا أن هذا الطعام الكثير لا يزودها بطاقة كافية من النشاط

ولما انصرف المدعوون ، جلست تنتظر تأنيب « دافيد » لهـــا بسبب توجيهها ذلك السؤال المحرج الى الحاكم الانجليزى .. ولكنه لم يؤنبها ، ولم يعاتبها ، وانما بدا مشغولا بأفكاره عنها .. وكان هكذا دائما فى الاسابيع الاخيرة ، وقد ارجعت هذه الحالة الى انشـغاله بالمبانى التى كانت ترتفع بسرعة مذهلة ، والى الطلبة وأولياء الامور الذين اقبلوا من مختلف الانحاء ليحجزوا الاماكن فى ذلك المـــركز الثقافى . وقد بلغ من انشغاله انها كانت تقضى اليـــوم كله فى بعض الاحيان دون أن تراه غير لحظات يسيرة

واطفأ الخدم الاضواء ، وسار الاثنان فى الدهليز المؤدى الى غرفة نومهما .. ولما رآها تعتمد بقوة على ذراعه ، قال لها :

ـ هل تشعرين بالتعب ياأوليفيا ؟

ـ قليلا ..

وقررت أن تعترف له فى الصباح بانها ـ منذ بضعة أيام ـ وهى تشعر دائما بالتعب .. أما الليلة ، فانها لاتجد من القوة مايعينها على ان توضح له الامر . ووقف هو أمام الغرفة فى انتظار دخولها ، ولم تلبث أن جمعت أطراف ثوبها الطويل ، ومرت الى غرفتها .. ولكنها توقفت فجأة وقالت له :

ـ هل كنت أبدو جميلة الليلة ؟

فتردد برهة .. ولكنه لم يلبث أن قال بهدوء حين رأى نظراتها تتألق :

ـ جدا ..

وكادت أن تقول له : « اذن لماذا لا تأخذنى بين ذراعيك وتقبلنى » ولكنها كتمت هذه العبارة حين رأت فى عينيه حـــركة انسحاب وانكماش نفسى ، ومن ثم قبلته بسرعة وقالت

ـ طابت ليلتك يا « دافيد » ..

ـ طابت ليلتك يا « أوليفيا » ..

ولما رآها ترتد عن الغرفة ، أسرع يقول فى توجس :

ـ الى اين ؟..

ـ سوف أنام هذه الليلة فى غرفة الاستقبال ، لاننى أشعر الليلة ببعض التعب ..

ومرت لحظة قبل ان يقول :

ـ كما تشائين ، فان وجهك يبدو شاحبا فعلا ..

واستدارت ، وتركته واقفا فى مدخل غرفة نومهما ، ومضت لتنام بمفردها ـ لاول مرة ـ منذ زواجهما ..

وعضت على شفتيها ، وهى تقول لنفسها : « انه غير مهتم ؟ .. انه لم يحاول ان يعيدنى اليه ؟.. انه لايحبنى كما أحبه ! »

وفى سكون الليل اخذت تبكى ، وقد ادهشها ان وجدت نفسها تبكى فى الايام الكثيرة التالية لاتفه الاسباب !

وبعد ظهر اليوم التالى ، ازداد شعورها بالوحشة والانفراد .. فقررت أن تقوم بزيارة لاحدى الصديقات فى البلدة . وشرعت تستعرض صديقاتها اللاتى يمكن أن تشعر مع احداهن بالانس والراحة . واستقر رايها اخيرا على الذهاب الى « ليلا مانى » .. فاستقلت مركبتها ، وامرت السائق بالذهاب الى بيت المستر « داريا » ..

ولم تجد « داريا » بالبيت .. ومن ثم تردد البواب فى السماح لها بالدخول ، وراح يتبادل الراى مع سائق المركبة باللغة الماراثية .. وقد استطاعت ان تفهم بمحصولها القليل من هذه اللغة ، أن العادة جرت الا تستقبل « ليلا مانى » اية ضيفة انجليزية بدون حضور زوجها ..

وهنا قالت « أوليفيا » متدخلة فى الحديث :

ـ ولكننى لست انجليزية ..

ولما رآها البواب تنطق هذه العبارة باللغة الماراثية ، ايقن انها ليست انجليزية فعلا ، لان الانجليزيات ـ بوجه عام ـ يرفضن الحديث بغير لغتهن

وسمح لها البواب بالدخول مرحبا ، وأمر أحد الخدم أن يخبر سيدة البيت بوصول هذه الضيفة

ووقفت « أوليفيا » تنتظر فى الحديقة الجميلة التى كانت الطيور تملأ جوها بالاغاريد .. وكان ثمة غزال اليف يقترب منها متشمما ، آملا فى أن يجد معها قطعة من الحلوى . فلما خاب أمله ، تراجع عنها فى ارتياب ..

وعاد الخادم يدعوها للدخول .. ولما مرت من ثلاثة أبواب ، رأت « ليلا مانى » واقفة فى انتظارها وقد بسطت اليها ذراعيها فى حرارة وترحيب وهى تقول :

ـ لقد جئت بمفردك يا اختاه .. اننا نستطيع اذن أن نتبادل الحديث بحرية واطمئنان ..

وقالت « أوليفيا » بعد أن ردت تحيتها :

ـ ارجو ياعزيزتى ان تتحدثى ببطء ، لان قدرتى على فهم الماراثية لاتزال ضعيفة ..

فضحكت « ليلا مانى » وقالت :

ـ انك على كل حال احسن حظا واقدر على التعلم ، لانى حتى الآن لا اعرف شيئا من اللغة الانجليزية ، ويبدو أننى على جانب كبير من الغباء . لقد حاول زوجى كثيرا ان يعلمنى ، ولكننى كنت دائما اضحك كلما حاولت النطق بهذه الكلمات العجيبة . تعالى ياأختاه .. ادخلى ..

وظلت ممسكة بيد « أوليفيا » حتى بلغا غرفة كان الطفلان يلعبان فيها .. فتقدما نحو الضيفة وقاما بتحيتها فى وداعة واحترام ، بينما قبلت هى كلا منهما . وطلبت اليها « ليلامانى » أن تجلس على أريكة مريحة بين عدد من الوسائد اللينة ...

واحست فى جلستها بالراحة والاسترخاء . وكان ضوء الشمس يبدو ساطعا من الباب البعيد فى نهاية الغرفة .. وكانت الورود العاطرة الموضوعة فى أوانى الزهور تنشر فى جو الغرفة شذى مهدئا للاعصاب ..

وقالت « أوليفيا » :

ـ ما أجمل السكون الذى يشيع فى بيتك يا «ليلامانى» ؟ كيف

يبدو بيتك هكذا ساكنا رغم وجود الطفلين به ؟

فقالت « ليلا مانى » وهى تبتسم :

ـ انه لا يكون ساكنا هكذا عندما يحضر زوجى أو يأتى بعض الاقارب للاقامة معنا ، ولكننى عادة احب السكون ، وقلما اتحدث وانما اكتفى بالصمت والانصات . أوه .. نامى يا اختاه .. نامى .. فان التعب يبدو واضحا عليك

وابتسمت «أوليفيا» ، وتراخت فى مكانها ، واغمضت عينيها ، ثم قالت :

ـ لا .. لا .. لاينبغى ان انام .. لسوف استريح قليلا ...

ولكنها لم تستطع أن تستريح .. ولما فتحت عينيها ، رات «ليلا مانى» تتاملها بنظرات فاحصة مركزة . وبعد ان أحضر الخدم الوان الشراب والحلوى والفاكهة والفطائر ، اخذت تأكل ـ كعادتها فى الايام الاخيرة ـ بشهية ملفتة للنظر . وفجاة صفقت « ليلامانى » فى جزل ، وقالت ضاحكة :

ـ وانت ايضا يا اختاه .. !

ثم انحنت وراحت تربت على بطن « أوليفيا » برفق .. ولكن هذه نظرت اليها متسائلة دون أن تفهم شيئا ، وعندئذ اردفت « ليلامانى » تقول :

ـ نعم .. اننى اعرف الاعراض .. تحسسى يا أختاه ! انه ولد ثالث . .نعم اننى اعرف من نسبة ارتفاع بطنى اذا كان الجنين ولدا او بنتا .. انه هذه المرة ايضا ولد . وسوف استطيع أن اقول لك بعد أشهر قليلة ان كان جنينك ولدا أم بنتا

وصعدت الدماء الحارة الى وجه « أوليفيا » ثم سرت حرارتها فى كل جسمها . نعم .. ربما كان هذا صحيحا ؟ .. ولعل هذا هو سبب استرخائها وتوعكها وشعورها الدائم بالجوع ، وعدم اهتمامها بما يجرى فى بيتها ..

وقالت بتردد :

ـ اننى لم أعرف هذه الحقيقة بنفسى ..

فقالت « ليلا مانى » بسعادة :

ـ يسرنى أن أكون أول من بشرك .. وانا دائما منبع الانباء

السارة .. انى واثقة انك حامل .. لسوف اخبره ، أخبر زوجى ، وسوف يخبر هو بدوره أخاه ـ أعنى زوجك ـ وسوف نسعد جميعا بهذا النبأ السار

ثم انتصبت جالسة وارهفت السمع ، ثم قالت :

ـ آه .. ها هو ذا قد حضر .. لسوف اخبره الآن ..

فأسرعت «أوليفيا» تقول محذرة :

ـ لا .. لا .. ليس الآن .. يجب ان أخبر زوجى أولا . ويحسن ان أعود الى بيتى الآن ..

ولم تشك فى تشخيص « ليلا مانى » ، لانها هى نفسها ادركت اخيرا حقيقة الامر معها .. وهى الحقيقة التى فسرت كل شىء ..

وقالت «ليلا مانى» بانفعال :

ـ اذهبى اذن .. اذهبى ، ثم عودى بسرعة .. لسوف ابتهل الى الله أن يكون مولودك ولدا ..

ولما عادت الى البيت ، وجدت «دافيد» فى انتظارها وهو يمسك برسالة بين أصابعه ، وتوقفت فجاة حين رات سمات الاهتمام واضحة على وجهه ، ومن ثم قالت :

ـ كنت فى زيارة «ليلا مانى»

ـ أخبرنى البواب بهذا .. هذه رسالة من الحاكم العام يعرب فيها عن أسفه واستيائه من السؤال الذى وجهته اليه فى الليلة الماضية ، وقد اهتم بالامر وبذل جهده فى هذه الرسالة ليشرح وجهة نظره ..

ـ أرجوك يا « دافيد » .. لا تؤنبنى ، خاصة وانا الآن حامل ..

والقت بنفسها بين ذراعيه ، وتعلقت به .. وتركت شفتيها تبحثان عن شفتيه .. ثم حملها أخيرا الى الداخل ، تاركا رسالة الحاكم العام تسقط من يده دون أن يبالى !

***

ومضى معها فى اليوم التالى الى بيته الجبلى ليقضيا اسبوعا فى راحة واستجمام ، بعيدين عن الناس ، والاعمال ، والاعباء .. ذلك أن «دافيد» قرر أن يكافئها بهذا الاسبوع الممتع ، لاسيما بعد أن أكد له طبيب المستشفى المحلى أنها حامل فعلا ، وبعد أن قال له :

— ان اعصابها متوترة بعض الشيء يا مستر «ماكارد» ويحسن بك ان تمضى بها الى مكان هادىء لمدة اسبوع

وفيما كانا جالسين فى الشرفة المطلة ، على الوادى الاخضر ،تلفهما غلائل المساء الهادىء ، اذا بنغمات هذه الاغنية الحزينة .. اغنية الهند التى يرددها المزارعون والرعاة فى كل مكان ، تنساب الى اسماعهما :

ارو قلبى يا حبيبتى ..
كما اروى انا هذه الارض ..
واجعلينى ملك يديك ..
كما ساجعلها ملك يدى ..
ارو قلبى يا حبيبتى ..

وكانت الاغنية تنبعث من صدر مزارع يعمل الى ساعة متأخرة من الليل ؟ واحس «دافيد» بيد «أوليفيا» تقبض على يده فى شىء من الاضطراب ، فقال لها : « ماذا بك يا « أوليفيا » ؟ »

— هذه الاغنية تجعلنى اشعر بالوحشة البالغة .. رغم اننى هنا معك .. انها وحشة رهيبة لا أعرف سرها او مصدرها ..

— ربما يرجع هذا الى انك تسمعين الاغنية دون أن تشاهدى من يغنيها ..

— آه .. ربما ..

وساد الصمت بينهما .. واخذت الافكار تعصف براس «أوليفيا» وهى تتذكر ان اعمال زوجها — أو بمعنى آخر ، هذه البلاد — تأخذه منها يوما بعد آخر .. وانه — بعد أن يولد ابنهما — لن يستطيع أن يجعله ملكا لهما دائما !

وخامرها فجأة شوق شديد الى وطنها .. ولكنها هزت راسها . انها تحب « دافيد » .. تحبه كما لو كان نصف اله .. وان المكان الذى يعيش فيه دافيد هو وطنها .. وحسبها انها تحمل له كل هذا الحب اما هو ، فلا شك انه يحبها ايضا ، ولكن هذه البلاد تشاركها فى هذا الحب !

وقالت بعد ان ملت الصمت : « ان الهواء مشبع بالرطوبة ..دعنا ندخل لاننى اشعر ببعض التعب »

وسارا معا الى الردهة الكبرى حيث كان ثمة مصباح كبير ينيرها فلما توسطاها ، طوقها بذراعه ، وقبل شفتيها بحرارة .. فمالت عليه وقالت :

— «دافيد» .. اننى سعيدة لانه سيكون لنا ابن .. !

— اخبرينى لماذا ياحبيبتى . اننى أعرف أن الابن نعمة من نعم الله، ولكن لماذا تقولين هذا الآن ؟!

فاخفت وجهها فى صدره وقالت :

— اننى اتمنى ان يكون لنا اربعة ابناء على الاقل .. لاننى عندئذ سانشغل بهم عنك .. وبذلك إتيح لك المزيد من الوقت والفرص لتتفرغ لاداء رسالتك !

فغمغم قائلا : « يالك من زوجة نموذجية ! »

وشعرت بيده تمسح على شعرها ، فالتصقت به بقوة ،واغمضت عينيها .. واقسمت — فيما بينها وبين نفسها — ان تجعل حبها يحيط به كالملاك الحارس .. ستجعله كالهواء النقى الذى ينتشر حوله.. انه قد لا يشعر به وهو يتنفسه ، ولكنه موجود دئما !

الفصل الثالث

المولود الجديد

وفى نهاية الايام السبعة ، عادا الى بيتهما الكبير فى بونا ، وهناك توقفت «أوليفيا» عن تلقى دروس اللغة الماراثية . لانها شعرت أن علاقتها بالهند قد انقطعت تماما ، وانها سوف تقتصر على أن تكون زوجة لـ «دافيد» واما لاولاده .. سواء كان فى الهند ، أو فى ايةبقعة اخرى من بقاع الدنيا !

وارسلت الى «ليلا مانى» تقول انها فى حالة صحية لا تسمح لها بزيارتها بعد ذلك . ولما جاء «داريا» لزيارتهما بمناسبة عودتهما من الجبل ، عاملته بشىء من التكلف .. ولكنه لم يغضب او يعتب ، لان زوجته كانت قد اخبرته بحالة « أوليفيا » وان المراة تكون عادة متوترة الاعصاب فى اشهر الحمل ، لاسيما الاولى منها ..

ولكن عندما حاول «دافيد» ذات مرة أن يقبلها برفق ، صاحت به فى توفز عصبى : « اننى لست مصنوعة من الزجاج يا «دافيد» .. وحذار أن تقبلنى بخفة ورفق مرة اخرى »

ثم ألقت بذراعيها حول عنقه . وفوجىء هو فى أول الامر بثورتها، ولكنه لم يلبث أن ضحك وقال : « يالك من ساحرة فاتنة »

ثم طوقها بذراعيه ، وانهال على شفتيها بالقبلات ..

وبينما هما غارقان فى هذا التيه من القبل اذ بالباب يفتح فجاة ، واذ باحدى الخادمات تطل برأسها ، ثم تتراجع فى فزع وتغلق الباب وراءها ..

واسرع «دافيد» مبتعدا عن زوجته التى قالت فى غيظ :

ـ هذه الخادمة اللعينة

فقال دافيد ملتمسا لها العذر :

ـ لا تنسى يا « أوليفيا » اننا الان بعد الظهر ، وقد اعتادوا ان يروني جالسا الى مكتبي في مثل هذه الساعة كل يوم ..

فقالت وهى لا تزال غاضبة :

ـ لقد مضت ايام كثيرة ـ أعنى منذ ان عدنا الى بونا من الجبل

ـ لم تقبلنى فيها هكذا ..!

فأخفى ارتباكه بضحكة قصيرة وقال :

ـ اننا زوجان ياحبيبتى .. والايام أمامنا طويلة عديدة .. أليس كذلك ؟ .. حسنا .. يجب أن امضى الآن الى مكتبى ..

ـ اوه .. حسنا .. !

ورأى التواء شفتيها ، فتوقف مترددا ثم ابتسم .. ثم رفع ذقنها وقبلها بحرارة مصطنعة ، ثم عاد وابتسم فى عينيها المتمردتين ، وانصرف ..

ووقفت فى وسط الغرفة تفكر فيما حدث .. واخيرا قررت ان الهند هى التى تفصل بينها وبين زوجها دائما .. فماذا تستطيع ـ وهى المراة الضعيفة ـ ان تفعل ازاء هذه الروح السامية الشامخة ؟

وكانت الامطار الموسمية قد خذلت هذه المنطقة الغربية من الهند فى تلك السنة .. وكان المواطنون الملهوفون يقول بعضهم لبعض فى اول الامر ان الرياح المقدسة ذات التيارات الدافئة الممتلئة بالمطر قد تأخرت عن موعدها فقط .. وكانت فى بعض الاحيان تتأخر اسبوعا او حتى شهرا . وكان هذا التأخير فى ذاته خطيرا ، لان الرياح الموسمية المتأخرة تعنى موسما خفيفا من الامطار .. اى ماء قليلا لا يكفى لانتاج المحاصيل المطلوبة على مدار العالم

ومضى اسبوع بعد آخر ولم تسقط الامطار ، وتبين ان التيارات الجوية الدافئة فى الرياح الموسمية قد مالت جانبا وانحرفت الى مناطق اخرى . وهكذا انهمرت الامطار الزائدة عن الحاجة فى الشمال .. وحتى الشرق ، كان له نصيبه من الامطار الغزيرة وان كانت قصيرة الامد .. اما فى غرب الهند ، بعد الهضبة الوسطى ، فلم تسقط الامطار . وأدرك « دافيد » أن المجاعة لابد آتية ، وان الاهالى قد بدءوا يستسلمون لليأس . نعم .. سوف تنتشر المجاعة ، وليس ثمة الآن

اى احتمال فى الهرب منها ، لأن القادرين على الشراء أخذوا يتسابقون فى شراء كميات الطعام القليلة الموجودة ، تاركين الفقراء والمعدمين لمصيرهم الاسود !

وفى خلال هذه الازمة ، وضعت «أوليفيا» مولودها .. وكانت قد رفضت الذهاب الى بومباى أو الى اى مستشفى انجليزى لتقضى فترة الوضع والنقاهة . ومن ثم تولى رعايتها الطبيب الانجليزى بالمستشفى المحلى ، تعاونه ممرضة حسناء مولدة المنبت ..

وكان المولود ولدا .. وضعته فى ساعة الغروب عندما كانت حرارة النهار تخيم بقسوتها على البلدة . وكان الطبيب يكره ولادة النساء البيض فى مثل هذه الظروف ، وينصحهن دائما بالذهاب الى بومباى .. الا ان «اوليفيا» كانت عنيدة . ومن ثم شعر انه لن يكون مسئولا عن شىء اذا تعقدت الامور !

ولكن الامور سارت على خير حال .. وساعد شباب « اوليفيا» وقوة بنيتها على سهولة وضعها .. وما هى غير ساعة بعد حضور الطبيب فى المرة الاخيرة ، حتى كان الطفل قد خرج الى عالم الدنيا ..

وقالت اوليفيا له وهى تلهث : « اهو طفل قوى سليم ؟ »

فقال الطبيب : « نعم .. ابن جميل ، لك تهانى القلبية »

وحملت الممرضة ـ الباسمة دائما ـ المولود الصغير الملفوف فى طيات من قماش قطنى فاخر ، وادنته من «اوليفيا» التى نظرت اليه برهة طويلة ، ثم ضحكت وهى تقول بتفاؤل واستبشار :

ـ عجبا ! .. انه صورة مصغرة من جده العجوز .. لسوف يكون له شعر احمر ، وشارب احمر ، ومزاج عنيف ..

وضحكت الممرضة معها .. وفتل الطبيب الانجليزى شاربه باسما ، وتمنى لو كان زوجها موجودا معها فى تلك اللحظة ليرى كيف تبدو زوجته على اتم ما يكون من الصحة والتفاؤل . واخيرا انصرف راضيا عن نفسه

ولما عاد «دافيد» مساء ، رأى كل مصباح فى بيته مضاء ، وكل خادم فى انتظاره بوجه كله الابتسام ..

كان كل منهم يريد ان يكون أول من يحمل البشرى الى « دافيد »

... ولكن الممرضة أسرعت تحمل « البشرى » بنفسها ، وتضعها

بين ذراعى الوالد الذى راح ينظر الى المولود فى ذهول ، وكأنما نسى ان هذا ماسوف يحدث منذ شهور

وقالت الممرضة ، وهى تراه يحملق فى وجه ابنه :

ــ تقول المسز « ماكارد » انه صورة مصغرة من والدك ايهـــا السعيد ..

فقال « دافيد » : « هذا مايبدو لى ايضا »

وكان المولود ينظر الى ابيه فى هـــدوء عجيب .. ومن ثم قال الوالد :

ــ يخيل لى انه لايحبنى !..

فضحكت الممرضة وقالت :

ــ انه لا يرى الان .. ان الاطفال لايرون فى هذه الفترة الاولى من خروجهم الى الدنيا ..

ــ آه .. الآن اطمأننت ..

وشعر « دافيد » فجأة بالاستبشار والتفــاؤل ، ونسى فى تلك اللحظات ماعاناه من آلام طوال اليوم ٠٠ ذلك أن شوارع البلدة كانت قد بدأت تزدحم باللاجئين من الريف . وقد ذهب بنفسه ليرى ماذا يجرى بالبلدة .. وهناك استمع الى احاديثهم عن المخازن الخاوية ، والحقول الجافة ، والماشية التى اصبحت هياكل عظمية ، والابار التى نضبت مياهها ، ولم يكن يوجد مخازن باقية الا فى المدن ، ومن ثم ، اخذوا يهاجرون الى المدن سعيا وراء الطعام .. يستجدونه حينا ، ويسرقونه ــ اذا استطاعوا ــ حينا آخر .. وكان « دافيد » قد قرر اثناء عودته الى البيت ان يكتب الى الحاكم العام طالبا معونة عاجلة ... غير أنه كان يعلم ان الحاكم الانجليزى المحلى المتشائم دائما ــ البعيد عن الحياة الواقعية فى الهند عادة ــ سوف يهز على الارجح كتفيه ، ويحول طلبه الى الحاكم العام فى بومباى . حســنا اذن ، ليذهب بنفسه الى بومباى اذا لزم الامر ٠ وفى الوقت نفسه كانت كلياته ــ للمفارقة الشديدة ــ مليئة بالطلاب ، لان معظمهم من أبناء الاثرياء ..

ولكنه نسى هذا كله فى تلك اللحظات التى راح ينظر فيهــا باسما الى مولوده الاول .. واخيرا تقدم برفق ، ودخل الغرفة التى كانت

بها « أوليفيا »

وقالت الممرضة هامسة : « انها نائمة »

ولكنه ــ رغم هذا ــ سار على أطراف أصابعه نحو الفراش الذى كان المصباح مضاء بجواره .. ومن خلال غلالات الستائر البيضاء المحيطة بالسرير رأى « أوليفيا » راقدة فى سكون تام . وكان واضحا ان الممرضة قامت بواجبها كاملا فى اعــداد كل شىء ، وترتيب كل صغيرة وكبيرة فى الغرفة

ووقف بجوار السرير ساكتا يتطلع اليها دون أن تراه ، وفجأة شعر بفيض من الحب القوى الجارف يجتاح كل كيانه .. ماأجملها ٠٠ وما اشد وفاءها واخلاصها ، وما اقوى بنيتها ٠٠ ان أية امرأة اخرى ماكانت لتكف عن الشكوى لو انها تركت هكذا بمفردها فى أوقات كثيرة ، حتى فى وقت ولادتها .. أما « أوليفيا » ، فانها لم تشك قط ، وهى لاتشكو الان .. وانما تنام فى هدوء وسلام ..

واحس « دافيد » بالندم لانه لم يقم بواجباته نحوها على الوجــه الاكمل . ولكن .. حسنا .. لا يزال فى الوقت متسع لكى يعوضها عن هذا الاهمال غير المقصـــود ، ولكى يعرب لها عن عميــق حبه وتقديره

ورفع طرف الكلة برفق ، وتسلل الى جوارها .. ووضع يده بكل حنان على يديها المعقودتين على صدرها .. وفتحت هى عينيهــا بهدوء ، وكأنما تعود من مكان بعيد بعيد .. ثم اذا هى تراه فتقول بصوت لا تزال فيه سمات الندم : « حبيبى دافيد ... »

وانحنى عليها ، وقال هامسا : « لقد رأيتـــه يا حبيبتى ... رأيته »

ورنت على شفتيها ابتسامة خفيفة ، وقالت : « انه كله من آل ماكارد .. لحما ودما .. »

ــ أليس هذا عجيبا ؟.. ولكن لعل ســـماته وطبــاعه وخلقه تشبهك

ــ انتى أريده أن يشبهك انت من جميع الوجوه ..

ــ لسوف ننتظر ونرى ..

ـ ما اشد رغبتى فى النوم ..

ـ نامى يا حبيبتى .. ماكان ينبغى أن أوقظك ..

وانسدلت الجفون على عينيها .. وتسلل هو خارجا من الغرفة بقلب مفعم بالحب والحنان ..

الفصل الرابع

قلادة الكريستال

قال الحاكم العام فى مدينة بومباى لـ « دافيد ماكارد » عندما ذهب يطلب الغوث منه لاهالى المنطقة الغربية فى الهند : « أن المجاعات ظاهرة اجتماعية وبيئية مزمنة فى الهند يا مستر ماكارد »

ونظر « دافيد » اليه .. كان رجلا فى نحو الخمسين من عمره ، وسيما ، انيقا ، مطمئنا تماما الى انه يؤدى واجباته نحو بلاده على اكمل وجه . واخيرا قال « دافيد » وهو يحاول أن يبدو هادئا :

ـ وهل من الضرورى أن تصبح المجاعات مزمنة ؟

ـ هكذا كان الامر دائما .. ولكننا بذلنا أقصى الجهد ليقل عددها ، وتتسع الفترات بينها . لقد مددنا السكك الحديدية ،وأقمنا وسائل الرى الحديثة ، وبنينا السدود والخزانات لحفظ المياه المنحدرة من جبال همالايا . ونحن نطعم ملايين الاهالى ، ونوفر الاعمال لملايين آخرين ، حتى يتيسر لهم أن يشتروا بأجورهم الطعام المستورد من الخارج .. ومع هذا كله فأنا اقدر أن الذين سيموتون بسبب هذه المجاعة فى منطقة بومباى لن تقل نسبتهم عن ١٥٪ من عدد السكان فى خلال الاشهر الثلاثة التالية . ولاشك أن هذه النسبة سترتفع فى بعض المقاطعات الاخرى ، وربما تصل الى ٢٥٪ والواقع ان الاحصائيات لا يمكن ان تكون مضبوطة فى الهند

وكان « دافيد » يصغى فى احترام ظاهرى ، لان الحاكم العام كان يجامله فى معظم المناسبات .. ربما لانه أولا ابن المليونير المالى الكبير « تيودور ماكارد » .. ولكن مجاملاته له الان اصبحت وليدة تقدير ،

واحترامه لـ « دافيد » بالذات . والحاكم العام لاينسى أن « دافيد » كان دائما صريحا مستقيما فى معاملاته مع الحكومة ، كما ان خريجى كلياته أثبتوا انهم يعرفون واجباتهم كموظفين حكوميين ، ولايتجاوزون حدودهم . وقد عرف هؤلاء الخريجون باسم « رجال ماكارد » .. وكان يكفى أن يحمل أحد الهنود هذا اللقب حتى تفتح له ابواب العمل فى الوظائف الحكومية والشركات والبنوك ..

وقال « دافيد » مقترحا :

ـ ان ابى يقول ان البلاد فى حاجة الى مزيد من السكك الحديدية ، لان الطعام موفور فى شمال الهند . وعلى هذا فالامر مجرد سوء توزيع .. !

واخفى الحاكم العام امتعاضه ، وقال :

ـ ان الامر ليس بمثل هذه السهولة !.. لان المشكلة الحقيقية هى كثرة عدد السكان . والواقع ان الهنود يستبد بهم الخوف من العقم . ولهذا ترى الصحف مليئة بالاعلانات عن الادوية والعقاقير التى تزيد خصوبة الرجل والمراة ، وتقضى على الضعف او العجز الجنسى . ومع ذلك فانا شخصيا لم أسمع عن امرأة هندية عاقر او رجل هندى عقيم . نعم يامستر « ماكارد » .. ان جميع موارد الامبراطورية لايمكن ان تكفى هؤلاء الملايين الذين يزدادون عاما بعد آخر بنسبة مفزعة ٠٠ وهذا هو السبب الحقيقى للمجاعات

وصمت « دافيد » برهة ، وراح يتذكر المناقشة التى دارت بينه وبين صديقه « داريا » ذات يوم ٠٠ وقد وثب « داريا » عندئذ مهتاجا حين ذكر له « دافيد » مشكلة تكاثر السكان بنسبة تزيد كثيرا عن مواردها الطبيعية ، وقد قال « داريا » يومذاك بحماس :

ـ لشد مايؤسفنى هذا القول يا«دافيد » .. ان الحكومة البريطانية تتخذ من كثرة عدد السكان ذريعة لكل فشل مقصود ـ أو غير مقصود ـ لمشروعاتها فى الهند . ولو اننا لا نتكاثر بمثل هذه النسبة لكى نرضى الانجليز ، لما كان للهند اليوم وجود .. ان معدل عمر الفرد منا لايزيد على سبعة وعشرين عاما . فهل نحن مسئولون عن هذا ؟.. هل تعرف نسبة الوفيات بين اطفالنا ؟ انها ٥٠ ٪ .. فكيف لا نسعى الى أن ننجب من الاطفال اكبر عدد ممكن حتى نعوض هذه

النسبة الرهيبة من وفياتهم ؟ اننا شعب ابتلاه الله بأسوأ جو فى الدنيا ، وبأفظع نوع من انواع الحكم فى العالم ..

ولكن « دافيد » لم يستطع أن يردد هذه الكلمات امام الحاكم العام ، لان الحكمة كانت تقتضى أن يهادنه اذا اراد ان يظفر بمعونته . ومن ثم نهض وقال :

ـ حسنا ياصاحب الفخامة .. أعتقد أن علينا جميعا أن نتآزر حتى تمر هذه المحنة بسلام . وأنا لاأريد شيئا لنفسى ، لان كلياتى مليئة بالطلبة كالمعتاد ..

ـ اعتقد ان العائلات القادرة ترسل ابناءها اليك ليطمئنوا الى أن الاوبئة لن تصل اليهم .. نعم .. ان الاوبئة سوف تعقب المجاعة ... هذه حقيقة لا مفر من الاعتراف بها ، ولا من العمل على مواجهتها منذ الان !

ـ اننى واثق من هذا ياصاحب الفخامة .. طاب يومك ..

ـ طاب يومك يامستر « ماكارد » .. انت تعرف اننا نقدر كل ماتقوم به من خدمات فى سبيل الهند ..

وتصافح الرجلان .. وغادر « دافيد » القصر الفاخر الى حيث كانت مركبته المأجورة واقفة فى انتظاره أمام البوابة الكبيرة التى كان الحراس من طائفة السيخ قائمين عليها ..

***

عاد « دافيد » الى الفندق وهو يشعر بالحزن والقلق ٠٠ وكانت سحائب الغبار الجاف تظلل المدينة ، وكأنها تنذر بشر مستطير . وتمنى لو أنه لم يحضر « أوليفيا » والطفل معه الى بومباى ، ولكنه التمس العذر لنفسه قائلا انها كانت فى أشد الحاجة الى تغيير الجو .. كما انه كان من المعروف بداهة ان الاحوال فى منطقة بومباى احسن منها فى اية منطقة اخرى . وهكذا جاءوا جميعا ، ومعهم مربية خاصة ، وخادم لحمل المظلة فوق الطفل أينما ذهبوا . والواقع أن الايام القليلة التى أمضوها فى بومباى كان لها أحسن الاثر على صحة « أوليفيا »

وفى ذلك المساء ، عندما دخل «دافيد» غرفتها ، وجدها فى حالة معنوية طيبة .. بل رأى الحمرة الخفيفة تعلو وجهها لاول مرة منذ أن وضعت ، وكانت الغرفة هادئة تماما وهى جالسة فيها بثوب من

الموسلين الابيض ..

وسألها قائلا : « هل نام تيد ؟ »

فلوت أنفها له ، وقالت تصحح الاسم : « نعم .. ان تيودور نائم »

وكانا قد اتفقنا على تسمية الطفل تيودور « اى هبة الله » ، ولكن «اوليفيا» اصرت على عدم اختصار هذا الاسم بأى حال ، وقد قال لها «دافيد» معاتبا يومذاك : « انتظرى حتى يلتحق بفريق كرةالقدم فى الجامعة ؟ .. ان انصاره وزملاءه لن يعرفوه الا باسم تيد »

ـ ليكن .. ولكننى لن اناديه بغير اسم « تيودور »

ولما دخل فى تلك الليلة ، رفعت وجهها اليه ليقبلها ، ولكنه تراجع بسرعة وقال :

ـ انتظرى حتى اغتسل يا حبيبتى .. يجب ان يغتسل الانسان بمجرد عودته من الشارع .. لا تنسى هذه الحقيقة يا «أوليفيا» ..

وغسل يديه ووجهه بالماء والصابون بضع مرات ، ثم عادالى الغرفة وهو يجفف وجهه ، بينما وقفت «أوليفيا» امام المرآة تضع حول عنقها قلادة جديدة ، فلما ثبتتها قالت له وهى تستدير اليه :

ـ ما رايك .. ؟ اهى جميلة ؟

ـ جدا .. من اى شىء صنعت حباتها هذه الرائعة ؟

ـ من الكريستال .. وقد اشتريتها اليوم من الحى الوطنى بالمدينة

والقى بالمنشفة من يديه ، وهو يهتف :

ـ من الحى الوطنى يا «أوليفيا» ؟

ـ نعم .. لقد قال كاتب الفندق ان المتاجر فيه مليئة بمثل هذه الاشياء الجميلة ..

وزم شفتيه حتى لا يستطرد فى عتابها .. اذ رأى أن الوقت ليس ملائما لتوجيه اللوم اليها ، وأحس انه هو المسئول عن عدم تحذيرها من الذهاب الى الحى الوطنى بالمدينة .. لانها كانت حديثة العهد بالاقامة فى الهند ، ولا تعرف من ثم الاخطار التى تكثر فى أوقات كل مجاعة . وقرر الا يفزعها ، واكتفى بأن قال لها محذرا :

ـ لا تذهبى مرة اخرى يا أوليفيا .. اذ يحسن أن تتجنبى الزحام فى مثل هذه الظروف العصيبة

ـ حسنا يا «دافيد» .. لسوف افعل ماتريد ..

ـ شكرا ..

ثم تقدم اليها ، وطوقها فى حنان شديد ..

وعاد ينظر اليها وقد بدت فى عينيه اجمل ما تكون ، ثم قال :

ـ ان هذه القلادة الكريستالية جميلة جدا .. هلم نهبط لنتناول العشاء ..

الفصل الخامس

ألـــوبـــاء

وزحف وباء الطاعون الى مدينة بومباى الكبيرة .. زحف فى غفلة من سكانها البيض ، لان سكان الاحياء الشعبية كانوا يحرصون على اخفاء الوفيات التى تقع فيما بينهم . وكانت الحياة فى المدينة تبدو – من الظاهر – جميلة فاتنة كالمعتاد ، لان سكانها البيض اعتادوا منذ أمد بعيد أن يتجاهلوا السكان الفقراء الجياع المشرفين على الموت طالما أنه ليس فى مقدور احد انقاذهم . ان هؤلاء البيض المتجاهلين للاوضاع الحقيقية ينظرون فقط الى الجبال الشاهقة المكسوة بالغابات ، والى بساتين النخيل ، والى السفن الكثيرة فى الميناء الفاخر ، والى المتاجر الضخمة التى تعرض انتاج كل بلاد العالم ، والى الناس وهم يروحون ويجيئون وكأنما الموت لا يظللهم فى كل خطوة !

أما الحاكم العام، فهو جالس فى مقره الهائل المقام على رأس مالايار، بحدائقه الغنـــاء ، وخدمه وحشمه وحراســه بملابســهم الزاهية وأسلحتهم التقليدية

ولــكن احــدا من هؤلاء البيض لم يكن يعرف أن وباء الطاعون قد بدأ يزحف متسللا الى المنطقة كلها بعد ان خذلت الامطار الموســمية غرب الهند ، وبعد أن اجتاحت المجاعة المنطقة بأكملها

أما الاهالى الوطنيون ، فكانوا يعرفون أن الوباء قد اجتاح أحياءهم، وراح يحصدهم بمنجله .. وكان بينهم خدم الفنادق الكبيرة الذين يعيشون لياليهم فى الاحياء الوطنية ، ونهارهم بين النزلاء حاملين اليهم جراثيم العدوى

ولما عاد « دافيد » وأسرته الى بونا ، شعرت « أوليفيا » ذات يوم فى الصــباح بصــداع مؤلم ، والم شــديد مصحوب بدوار رهيب .

واستيقظت من النوم لتجد نفسها ـ لدهشتها الشديدة ـ فى حالة ضعف بالغ . وكان « دافيد » قد غادر فراشه . ومن ثم راحت هى تبذل المحاولة بعد الاخرى لتنهض وتذهب الى الغرفة المجاورة لترى هل الطفل لا يزال نائما أم لا .. ولكنها عجزت حتى عن أن ترفع اطراف الكلة ، فتهالكت راقدة على الوسائد ..

وفى غرفة المكتب ، شعر « دافيد » فجأة وهو راكع يصلى ، انثمة هاتفا يدعوه للذهاب الى زوجته .. انه هاتف فى أعماق نفسه ،أدرك انه لن يستطيع أن يتجاهله .. فنهض رغما عنه ، ووجد نفسه يسير فى الردهة الطويلة الواسعة التى لا تزال رطيبة من اثر الليل ، ودخل الفرفة التى ترك فيها زوجته نائمة قبل ذلك بساعة . ولكنها لم تكن نائمة الآن ، وانما رآها من خلال الكلة ، راقدة متهالكة زائغة النظرات ..

وهتف وهو يهرع اليها : « اوليفيا ! .. ماذا بك ؟ »

فهمست قائلة : « لست ادرى ! .. لقد شعرت فجأة بضعف شديد . ان راسى ملتهب .. ويؤلمنى جدا ! »

ومد يده بسرعة من تحت غلالات الكلة ، وامسك بيديها .. فوجدهما ساخنتين مبللتين ، ومن ثم قال فى جزع شديد :

ـ لسوف استدعى الطبيب فورا .. استريحى يا حبيبتى ..

وحاولت ان تبتسم ، ولكن بدا بوضوح انه لم يكن فى مقدورها ان تفعل شيئا اكثر من ان تظل راقدة فى سكون ، وقد انسدلت جفونها، وازداد وجهها شحوبا ..

واندفع «دافيد» عائدا الى غرفة مكتبه ، واستدعى أحد الخدم .. ثم كتب رسالة قصيرة الى الطبيب الانجليزى المقيم بالمستشفى المحلى ، وسلمها للخادم قائلا : « خذ هذه الى الطبيب الانجليزى بالمستشفى ، وعد به فورا .. »

ومرق الخادم من الفرفة كالظل الخاطف .. وفى اقل من ساعة ، كان الطبيب يفحص « أوليفيا » بينما جلس « دافيد » بجوار الفراش ينتظر ..

وكان « دافيد » فى فترة استدعاء الطبيب قد حاول أن يغرى زوجته بشرب قدح من الشاى ، ولكنها قالت :

ـ اننى لا استطيع أن أشرب حتى جرعة من الماء .. أرجوك أن تدعنى وشانى ..

وهكذا جلس بجانبها ، واضعا يديها بين يديه ، حتى جاء الطبيب وراح يفحصها .. وظلت «أوليفيا» صامتة أثناء فحص الطبيب لها .. وكان اذا وجه اليها سؤالا ، أومأت براسها ايجابا أو هزته نفيا .وقد أدرك الطبيب ان الالم لا يحتمل ، وانها تتنفس بصعوبة بالغة ، وان الدوار من الحدة بحيث لا تكاد ترى وجهه ..

وفرغ الطبيب أخيرا من فحصه ، واعاد الغطاء الابيض عليها ، وبدا من امارات وجهها انها لا تبالى بشىء . وفى الردهة خارج الغرفة ،قال الطبيب لـ «دافيد» :

ـ هل كنت معها منذ وقت قريب فى بومباى ؟

ـ كنا هناك فى الاسبوع الماضى ..

وتساءل الطبيب بلهجة حزينة :

ـ هل ذهب أحدكما الى الحى الوطنى فيها ؟

ـ ذهبت هى مرة واحدة ..

فصمت الطبيب برهة ثم قال :

ـ أخشى ان تكون مصابة بالطاعون الدملى .. لقد سمعت أمس ان الوباء اكتسح بومباى ، وان الموتى كل يوم يعدون بالمئات !

وانعقد لسان «دافيد» ! .. الطاعون ؟ ذلك الرفيق الرهيب للمجاعات ، والداء الذى لا دواء له .. هذا اللعين قد أصاب زوجته الحبيبة ؟!

وصاح بقلب ممزق يقول :

ـ وماذا سأفعل .. الآن ؟ ماذا يمكن ان افعل ؟

ـ لا شىء للاسف .. ليس أمامنا الا ان ننتظر . وسوف ارسل اليك ممرضة للسهر عليها .. وبعد ثمان واربعين ساعة سوف يتحدد المصير

وفى خلال هذه الفترة التى أمضاها «دافيد» بلا طعام أو شراب أو نوم ، كان الموت يجثم فى غرفة «أوليفيا» . وكانت أعراض الداء الوبيل قد بدت على جسمها الواهن ، مما جعل الطبيب يقول لزوجها على انفراد بعد ان اعاد فحصها :

— يجب أن تعد نفسك لاسوأ الاحتمالات يا مستر « ماكارد »

وارسل «دافيد» نظراته عبر الباب الى السرير الراقدة عليه «أوليفيا» فى غيبوبة تامة ، ثم قال وهو يغص بريقه :

— هل تعنى أنها ... ؟!

— انها لن تعيش الى الغد .. ولا يمكن انقاذها بأى حال ..

فلعق «دافيد» شفتيه الجافتين وقال :

— لسوف أصلى من أجلها طيلة الليل ..

— هذا هو الشيء الوحيد الذى يمكن ان نفعله فى هذه الحالة .. ان الصلاة اذا لم تنقذها من الموت بمعجزة ، فسوف تكون بردا وسلاما على روحها ..

وبعد أن أصدر بعض التعليمات الى الممرضة الكهلة ، لان الممرضات الشابات كن يفزعن من مرض الطاعون ، قالت هى له :

— يا للمسكينة .. انها فى أوج الشباب .. ثم الطفل الوليد .. ؟ !

فقال الطبيب لها :

— ان هناك احتمالا كبيرا فى نجاته من العدوى ، لان الطبيعة حريصة عادة على تحصين المولودين حديثا ..

ثم استدار الى «دافيد» وأردف قائلا :

— مستر « ماكارد » .. يجب عليك أن تعيش لترعى الطفل الصغير .. اذهب واسترح وابتهل ..

ومضى « دافيد » الى غرفة مكتبه ، وراح يبتهل الى الله بكل ما فى قلبه من آلام وأحزان ، لكى ينقذها بمعجزة ..

***

وفى فجر اليوم التالى ، وبينما كان صحن الكنيسة مزدحما بعدد من المسيحين البيض والهنود يبتهلون الى الله لانقاذ السيدة « اوليفيا » ، اقبلت الممرضة ولمست كتف « دافيد » الذى كان يصلى معهم ، ثم همست له قائلة :

— لقد صعدت روحها الى السماء يامستر « ماكارد » !

ورفع رأسه فى ذهول . ! لقد ماتت « أوليفيا » بينما هو يبتهل لكى تظل على قيد الحياة ..

ونهض فى ذهوله ، وهو يحس بنبضات قلبه تكاد تحطم جسمه ، وهنا قالت له الممرضة :

— لم يعد فى مقدورك أن تفعل شيئا الآن . فكر فقط فى ابنك ..

ولكنه لم يكن يفكر فى تلك اللحظة الا فى « أوليفيا » ومن ثم قال لاهثا :

— أريد أن أراها .. يجب أن أراها مرة أخرى ..

— لا .. أرجوك .. فكر فى ابنك الصغير ..

وأمسكت بذراعه حتى لايمضى .. وفى تلك اللحظة ، كان أحد الاهالى قد حمل الى المصلين فى الكنيسة نبأ وفاة « أوليفيا » .. واذا الجميع يرددون هذا النشيد الجنائزى : « اليك يا الهى .. أزداد اقترابا »

***

واجتاح الوباء بلدة بونا ، فقتل واحدا من بين كل عشرة من سكانها .. وهكذا مات الكثيرون من سكانها ، وكانت بينهم « ليلامانى » زوجة داريا الحسناء وجنينها طبعا ، وطفلاها .. وبقى « داريا » بمفرده ، مفجوعا .. بلا زوج ، ولا ولد ، فى قصره الكبير ..

اما « دافيد » ، فقد بقى له ابنه « تيد »

الفصل السادس

الحب من أول نظرة

كانت الشمس تغيب فى البحر الاحمر بعد يوم قائظ الحر .. وكان ضوؤها ينتشر على صفحة الماء كأنه سائل لمعدن مصهور ..

وقال الشاب :

ـ اننى لم أر فى حياتى غروب شمس كهذا منذ أن غادرت الهند ..

وقالت الفتاة فى شرود ذهن :

ـ ان الحرارة مفزعة حقا ..

وكانت الفتاة ، طويلة نحيله القوام ، انجليزية صميمة ، ترتدى ملابس بيضاء ، وترسل شعرها الى ما وراء وجهها البيضاوى .. وكانت تبدو وكأنها فى الخامسة والعشرين ، وان كانت فى الحقيقة تقترب من الثلاثين ..

أما الشاب فقد كان طويلا ايضا ، نحيل الجسم ، ضيق الكتفين ، كستنائى الشعر ، رمادى العينين . وكان يبدو فى الخامسة والعشرين أيضا ، وان كان فى الواقع لم يصل بعد الى العشرين من عمره ..

وكان كلاهما « تيد ماكارد » ـ الذى تركناه فى الفصل السابق طفلا وليدا يتيم الام ـ و « آنيز لينلى » ـ التى تظهر لاول مرة على المسرح احداث هذه القصة ـ عائدين الى الهند . وكانا قد التقيا على ظهر الباخرة ، كما يلتقى أى شاب بأية فتاة فى مثل هذه الظروف . ولكن الشىء الوحيد الذى جمع بينهما أن كلا منهما كان قد غادر الهند الى وطنه الاصلى .. هو الى أمريكا وهى الى انجلترا ، ثم ها هما ذا يعودان مرة اخرى الى الهند

أما فيما عدا هذا ، فكانا يختلفان تماما ..

انه امريكى الارومة ، وهى انجليزية صميمة ..

انه ابن المستر « دافيد ماكارد » المحســن الامريكى الذى كرس حياته لنشر الثقافة فى الهند .. وهى ابنة الحاكم الانجليزى العـام لاحدى المقاطعات الشرقية فى الهند

ولم يكن أحد يعرف هل ينتظر أن تستمر هذه الصداقة وتتطور بين ابنة الحاكم العام الانجيزى ، وابن المحسن الامريكى ؟ .. حقا ان اسم « ماكارد » يكاد يكون على كل لسان فى الهند ، ولكن مركز الحاكم العام لاحدى المقاطعات يضع عادة كثيرا من الحواجز بين الابنة، وبين أى شاب عادى ، حتى لو كان ابن مليونير امريكى !

ان « تيد » يريد أن تستمر هذه الصداقة وأن تتطور .. لقد أعجبه منها هدوءها واتزانها وسلامة تصرفاتها ، ومن ثم حرص على أن يوطد علاقته بها دون أن يشعرها بأنه يطاردها ..

أما هى ، فلم يكن أحد يعرف على وجه التحديد ، حقيقة شعورها .. لان تصرفاتها نحوه لم تزد عن أية تصرفات عادية يمكن أن تصدر من فتاة فى مثل ظروفها ، مع أى شاب لطيف مهذب ..

وفى تلك الساعة من الغروب ، كان « تيد » واقفا عند سياج ظهر الباخرة ، يتوقع أن تظهر « آنيز » فى أية لحظة بعد أن تفرغ من شرب الشاى .. وكان فى وقفته يبدو كأنه فى انتظارها .. ولكنها لم تكن متاكدة من هذه الحقيقة ..

وحينما رآها ، قال لها فجأة : « ما رأيك فى الهند بوجه عام ؟ »

فرفعت حاجبيها متسائلة ، ثم قالت : « ماذا تعنى ؟ »

ـ هل تعتبرينها وطنا ثانيا لك أم لا ؟

فقالت بصراحتها المعهودة :

ـ لست ادرى على وجه التحديد .. اننى ذاهبة لارى والدى مرة اخرى وحيثما يكون الوالدان ، يكون الوطن طبعا .. اننى فى الواقع لست واثقة مما اذا كنت اريد ان ارى الهند نفسها أم لا ؟ ولكن اطيافا من الذكريات ترتد الى ذهنى بين الحين والاخر ، فانا مثلا اجد نفسى اتذكر الهند كلما سمعت بلبلا يغنى فى الصباح الرطيب ..

فقاطعها قائلا : والموسيقى الحزينة فى المساء .. »

فوافقته قائلة : « ترى لماذا تكثر الموسيقى فى الليالى الهندية ؟ »

ـ لان كثيرا من الناس ...

ـ اوه .. اننى أعرف ..

وخيم عليهما الصمت برهة ، كانا خلالهـا مشغولين بالتطلع الى منظر قرص الشمس الملتهب .. وهو يوشك على السقوط فى أعماق الماء ..

واخيرا قالت هى مستأنفة الحديث :

ـ لعل الانسان لا يعرف فى الحقيقة له وطنا ، حيثمـا يكون .. فعندما نكون فى الهند ، لا نكف عن الحديث عن الذهاب الى أى مكان آخر يعتبر وطنا لنا .. انجلترا بالنسبة لى ، وامريكا بالنسبة لك ، .. واذا ذهبنا الى هناك .. أو اذا ذهبت أنا على الاقل ، أخذت أتحدث عن الهند ولا أكف عن التفكير فيها والشوق اليها ..

ـ كان هذا هو شعورى نفسه وأنا فى امريكا ..

وانطلقت ذكريات « تيد » الى ما وراء قرص الشمس .. الى بلاد الهند التى عاش بعيدا عنها نحو عشر سنوات .. أى منذ أن غادرها وهو فى العاشرة من عمره ..

لقد زارها مرتين أثناء هذه السنوات العشر الاخيرة التى كان يتلقى فيها دراسته بمدينة نيويورك ، فى قصر جده المليونير العجوز . وكان أبوه « دافيد » قد زاره مرتين أيضا ، ثم عاد الى أعماله الانسانية بالهند .. وهو يذكر أنه بكى كثيرا وهو يغادر بونا فى العاشرة من عمره ، الا انه لم يلبث أن نسيها أو كاد ، ولم يبق منها فى ذهنه الا ذكريات

وكان جده العجوز مشغوفا به ، لا يرفض له طلبا ، ولا يبخل عليه بشىء .. ومن ثم لم يشعر يوما بأنه وحيد أو محروم من شىء !

وقد تضاعفت سعادته فى المرات الاربع التى شاهد فيها أباه سواء فى الهند أو فى نيويورك . ورغم أن جده لم يحـاول قط أن يغفر لابيه اتجاهه الانسانى ـ العقيم فى نظره ـ واصراره على أن يكرس كل حياته لنشر الثقافة فى الهند ، الا أنه وجد متعة كبيرة فى المرتين اللتين حضر فيهما أبوه الى نيويورك

وفى أحدى تلك المرات ، قال «تيد» لابيه وهو يشير الى صورة لامه

« أوليفيا » تمثلها وهى شابة عذراء ، رائعة الجمال ، موفورة الكبرياء :
« هل ظلت أمى جميلة هكذا حتى الموت ؟ »

فقال الوالد بصوت حزين : « بل ازدادت جمالا وتواضعا »

ـ هل كانت متكبرة جدا ؟

ـ نعم ، قبل الزواج ·· ولكنها لم تلبث بعد الزواج أن أصبحت انموذجا للرقة والوداعة والتواضع ··

ـ وما السبب فى هذا التغير ؟

ـ لا أدرى يابنى ·· ولكننى أعرف أن الهند لاتترك انسانا دون أن تغيره !

وفى العامين الاخيرين ، حدث نوع من المصالحة بين الاب والجد ·· وقد سر لذلك « تيد » كثيرا .. ولكنه رغم ذلك ، كان يخشى أن يصارح جده برغبته فى العودة الى الهند بعد أن نال اجازته الجامعية فى الادب الانجليزى . على ان الجد العجوز ادرك ـ بذكائه ـ هذه الرغبة ، فلم يعترض ·· وانما قال فقط على سبيل الاحتجاج : « اننى لا ادرى ماذا يستهويكم فى هذه البلاد ، ولكن افعل يا ولدى ما يحلو لك »

ثم اردف قائلا بصوته الجهورى المرتفع :

ـ ان العصيان فى المرة الثانية لا يؤلم كالمرة الاولى · والعادة أن الابناء لا يدفعون ثمن تربيتهم ·· وقد تعودت أن أدبر امورى بنفسى ··

وأمضى « تيد » الشهور القليلة السابقة على عودته الى الهند فى سعادة بالغة .. فهو حينا يتبادل الحديث مع جده عن ذكرياته العديدة عن تلك البلاد ، وهو حينا آخر يعيش مع ذكرياته هو عنها ، فيذكر تلك الليالى الحالكة السواد التى كان يجلس فيها مع ابيه فى الشرفة ، او ذلك الخضم الزاخر من الاهالى فى ملابسهم البيضاء وعمائمهم المختلفة الاشكال والاحجام ، او تلك الاعداد الكبيرة من الطلبة والطالبات فى جامعة أبيه ، وكان بعضهم يقف ليمسح على شعره ويتدرب معه على الحديث بالانجليزية ·· بل انه ليتذكر تلك الرائحة التى كانت تنبعث منهم ، وكأنها رائحة العشب الاخضر الناضر المقطوع حديثا ·· وذلك عندما كانوا يحملونه بين أيديهم فى حنان ،

وكل منهم ـ او منهن ـ يريد أن يعوضه عن وفاة أمه ، بفيض من المشاعر الحانية . أن هذا الحنان الدافق هو أهم وابقى شىء يذكره عن الهند · وهو لا يدرى سره ·· ربما لانه كان طفلا جميلا ، وربما لانه كان يتيما . واخطر من هذا انه كان يتقبل كل ما كان تقدمه اليه النساء والفتيات من فاكهة وحلوى ·· ولو علم أبوه بهذه الحقيقة لفزع ، ولكن كانت ثمة أشياء كثيرة لا يعرفها أبوه ، بل لا يعرفها غيره · كان هناك سر ما ، بينه وبين الهند وهو طفل ·· انه حقا لا يعرف طبيعة هذا السر ، ولكنه واثق بأن الهند التى يحبها هى «هنده» هو وليست « هند » أبيه ، وأن الفارق بينهما كبير ··

ولم يحدث من قبل أن تعرف بفتاة ، وأراد أن تتحول هذه المعرفة الى صداقة ، ثم الى حب..كما حدث مع «آنيز» هذه ، رفيقة السفر ·· لقد عرف حقا فى طفولته فتيات صغيرات ، أهمهن « روثى » الصغيرة البدينة المستديرة الوجه الضاحكة ، ابنة المستر والمسز « فوردام » · ولكن « روثى » كانت تصغره بثلاثة أعوام ·· وكان كثيرا ما يخجل من اللعب معها · ولما ذهب ذات مرة لزيارة أبيه فى الهند ، علم أن والديها أرسلاها لتستكمل دراستها الثانوية فى ولاية أوهيد · أما الفتيات فى أمريكا ، فقد كان يجد صعوبة كبيرة فى أن يشرح لهن السبب الذى من أجله سوف يعود الى الهند · ولما كانت كل منهن لا تعرف هذا السبب ـ ولا يهمها فى غالبية الاحيان أن تعرف ـ فقد كانت تبادر الى قطع صلتها به ، رغم علمها بأنه الوريث الوحيد لملايين العجوز « ماكارد » بعد أبيه . وهكذا عاش سنوات شبابه القصيرة فى نيويورك بعيدا عن الحب ·· بل ولعله الآن ، حتى مع « آنيز » هذه ، يتمنى الا يقع فى الحب بسرعة قبل أن يعرف على وجه التحديد ماذا يريد أن يفعل فى الهند · فاذا عرف هذا يوما ، فلا بأس طبعا من أن يتزوج عن حب ، أو عن غير حب ، لينجب أبناء يحملون اسم العائلة ويرثون ملايينها . وقد كان جده العجوز صريحا فى هذا الشأن ، عندما قال له ذات يوم :

ـ انك آخر « العنقود » فى الاسرة ·· وعليك أن تتزوج فى أقرب وقت لتنجب أكبر عدد ممكن من الابناء والبنات ·· ولو أن أمك عاشت لانجبت عشرة أخوة وأخوات لك ·· لانها كانت جميلة وقوية ، تنبض

انوثة وحيوية .. ولكن الهند قتلتها !

ثم أردف جده قائلا ـ فى تلك المناسبة ـ بصوت متعب :

ـ اننى لا ادرى لماذا تريد الذهاب الى هذه البلاد والاقامة فيها ؟

وقد رد عليه « تيد » عندئذ قائلا :

ـ اننى لا أعرف بعد يا أبى ٠٠ ربما لا تطول اقامتى هناك

ولكنه كان يعرف فى قرارة نفسه ان اقامته سوف تطول ، وربما تستمر الى آخر العمر .. انه لم يجد له مكانا فى نيويورك .. رغم ان الحياة فيها ممتعة صاخبة .. وانه يتمنى ان يتعرف على كل انسان بها ويصادقه

وكان قد نجا من الحرب العالمية الاولى ، ثم أقبل على الحياة بعد أن استكمل دراسته الجامعية ، فاذا به يجدها حياة طائشة .. كلها سهر وخمر وعبث ولهو وفساد .. وكأنما اراد المجتمع الامريكى أن يعوض سنوات الحرب القاسية ٠ وقد كان فى مقدوره أن يشارك فى هذا اللون من الحياة على نطاق واسع بفضل ملايين جده ، ولكنه خاف منها ونفر عنها ولاذ بقصر جده ٠٠ ، لا يخرج منه الا تلبية لبعض الدعوات ٠ وهناك يبدو على الشاب الصغير من دلائل الوقار ، ما طالما اثار دهشة البنات واعجاب الامهات

وحتى والده لم يحاول أن يغريه بالعودة الى الهند ، فقد كتب له حين عرف برغبته يقول :

ـ لاتظن أن الواجب يحتم عليك العودة الى الهند ٠٠ حقا ان لك بيننا مكانا دائما ، وأن هناك أوقاتا أشعر فيها بالرغبة الشديدة فى حضورك لكى تحل محلى يوما فى ادارة هذه المؤسسة الكبرى ٠ ولكن هذه الرغبة لا تلزمك بشىء ٠٠ فأنا لم أحذ حذو أبى ، وليس حتما عليك أن تحذو أنت حذوى

ولكنه لم يكن عائدا الى أبيه ، وانما هو عائد الى الهند ٠٠ عائد الى شىء يعرفه ٠٠ الى عالم قديم ٠٠ عالم وديع رفيق ٠٠ ربما يكون فقيرا معدما ، ولكنه طيب شفوق . ان احدا فى امريكا لا يريده لنفسه ٠٠ هكذا كان شعوره ، ولكن لعل الهند تريده هو ٠٠ ولا شىء غيره !

وكان يعرف ان الهند التى تملأ عليه خواطره ، ليست الهند التى

تعرفها « آنيز » ابنة الحاكم العام ٠٠ لقد اكتشف بعد ايام قليلة من تعرفه بها ، انه لا ينبغى أن يناقشها فى الدور الذى لعبه غاندى ، وفى القومية الهندية الناهضة ، أو فى اى شىء من هذه الاشياء التى كتب له عنها عمه ـ صديق أبيه الحميم ـ «داريا» .. انه لم يكن يرى «داريا» ـ وهو طفل ـ الا نادرا . ولكنه عندما عاد لزيارة الهند ذات مرة ، رآه جالسا مع أبيه يتناقشان فى الشئون السياسية والوطنية مناقشة حادة كادت تبلغ حد الخصومة . ولما انصرف « داريا » ، قال « تيد » لابيه :

ـ هل العم « داريا » رجل شرير يا أبى ؟

فرد عليه أبوه بسرعة وبحزم :

ـ لا ٠٠ انه رجل كريم جدا ، وسوف يصبح يوما ما رجلا عظيما ٠٠

ـ اذن لماذا تختصمان ؟ !

فحاول والده أن يشرح له الموقف ببساطة ، فقال له :

ـ اننا نعيش فى فترة عصيبة من فترات التاريخ ، ولايستطيع أحد أن يتنبأ بما ستنتهى اليه الاحوال فى كل بلاد العالم ٠ ولكننا هنا فى الهند نرى اشياء كثيرة خاطئة ٠٠ وثمة رجال طيبون يحاولون أن يقوموا هذه الاخطاء بوسائل مختلفة ٠ وانا أعتقد ان طريقتى فى اصلاح الاخطاء هى أحسن طريقة . ولكن لـ « داريا » طريقة أخرى يراها الاحسن ٠٠

وقال « تيد » فى الحاح :

ـ ولكن ألا يمكن أن تكونا صديقين رغم هذا ؟

ـ هذا ما أرجوه ٠٠

وفوجىء « تيد » قبل عودته هذه الى الهند ببضعة أشهر ، بالعم « داريا » يراسله قائلا : « لقد أخبرنى والدك انك آت الى الهند عما قريب .. وقد استأذنته فى الكتابة اليك ، لان الهند التى انت آت اليها تختلف كثيرا عن الهند التى تركتها ٠٠ ولهذا يجب أن تكون على المام بالاحوال الجديدة هنا ٠٠ »

وظلت رسائل « داريا » تصله بانتظام تقريبا حتى شرع فى رحلة العودة ٠ وفى هذه الرسالة شرح له « داريا » الاوضاع الجديدة فى

الهند . قال له ان الهند القديمة بقراها لا تزال كما هى لم تتغير .. لان الامر يحتاج الى سنوات طويلة من الاستقلال التام لكى تتحسن الاحوال فى هذه القرى ، بل وربما يحتاج الامر الى نشوب حرب عالمية أخرى لكى تستطيع الهند أن تظفر باستقلالها الكامل فى النهاية .. وعلى أية حال ، فان أسلحة الاستقلال قد بدأت تصنع الآن على يد الزعيم غاندى الذى راح يجتذب أبناء القرى الى حركته بنجاح لم يسبقه اليه أحد . أن المنادين بالاستقلال احوج ما يكونون الى مناصرة القرويين ، لان غالبية سكان الهند يعيشون فى القرى .. وليس هناك غير غاندى من يستطيع أن يفعل هذا ..

ولم يكن شىء من هذا يبدو طبيعيا فى نظر « تيد » لانه لم يكن يتفق فى شىء مع ذكرياته .. ألا أنه كان مشوقا لان يعرف الحقيقة من كل جانب . وهكذا تحدث فى الامر – امر غاندى – مع « آنيز » وهما يرقصان معا ذات ليلة ، ولكنه فوجىء بها تتوقف عن الرقص ، وتتجهم قليلا ، ثم تعتذر بلطف عن مواصلة الرقص بحجة الم مفاجىء فى الساق .. ثم تطلب منه أن يجلسا ..

ولما جلسا ، قالت له :

– اننى لا أطيق ان أسمع اسم هذا الرجل الذى أخذ على عاتقه اثارة الاضطرابات والشغب فى انحاء البلاد .. انه رمز للنكران والجحود بعد أن نسى كل ما فعلناه من أجل الهند ..

وأدرك « تيد » أنها تتحدث عن الهند بعقلية ابنة الحاكم العام ، ومن ثم قال لها معتذرا : « اننى أدرك تماما شعورك ووجهة نظرك .. هل نعود الى الرقص ؟ »

وهنا صفحت عنه ، وعادت الى مراقصته .. وحرص هو بعد ذلك على عدم مناقشتها فى الشئون السياسية حتى لا يفقد صداقتها . ولكنه رغم حذره هذا ، كان يفاجأ دائما باختلاف فى وجهتى نظرهما .. لقد كان دائما ينظر الى الشىء بنظرة تختلف عن نظرتها .. ومع ذلك فقد شعر أنها صادقة مع نفسها ، صريحة ، بعيدة عن التكلف أو الادعاء .. وعدا هذا فقد كانت جميلة ..

وأفاق « تيد » من ذكرياته على صوتها ، وهى تقول له :

– انظر .. لقد غابت الشمس وراء البحر .. لسوف تغيب فى

انجلترا بعد وقت قصير ..

وصمت هو برهة قبل أن يقول : « هل ستشتركين فى الرقص الليلة ! »

– نعم . وأنت ؟ !

– بكل تأكيد .. هل نلتقى فى مكاننا المعتاد ؟

– نعم ..

وتبادلا النظرات برهة .. ثم أومأت له برأسها وانصرفت ..

***

وظل هو بعد انصرافها لحظات يتمشى على سطح الباخرة ومد « بصره » الى الحياة التى تنتظره .. انها حياة مألوفة لديه ، وليست غريبة عنه .. انها حياة فيها الكثير من طفولته .. ومع ذلك فانها تبدو فى تصوره جديدة .. ذلك لانه لم يعد طفلا ، فقد اصبح رجلا رغم أنه لم يتجاوز العشرين من عمره .. وسوف يعيش كرجل له تفكيره المستقل وأهدافه الخاصة ، وآماله الذاتية .. حقا انه سيشتغل بتدريس الادب الانجليزى فى جامعة أبيه ، ولكن هذا لا يعنى أنه سيعيش خاضعا لرغبات أبيه .. انه يحبه ويحترمه ولكن هذا لا يعنى أن يعيش خاضعا لرغباته .. انه يعلم فى قرارة نفسه أن طريقه فى الحياة يختلف عن طريق أبيه ..

وأفاق من تأملاته أخيرا على صلصلة الجرس الذى يعلن أن موعد العشاء قد اقترب ..

***

وفى خلال هذا كان « دافيد ماكارد » فى بومباى يستعد للاشتراك فى المهرجان الامبراطورى السنوى الذى يحضره ولى عهد انجلترا – برنس أوف ويلز – نائبا عن الملك . وكان المنتظر أن يصل الامير بعد يومين لشهود هذا المهرجان . وكان « دافيد » يعلم أن الباخرة التى تقل الامير هى نفسها التى تقل ابنه فى طريق العودة الى الهند . ولكنه – أى « دافيد » – كان يشعر بالقلق فى أعماق نفسه .. لانه خشى أن تحدث اضطرابات سياسية عنيفة أثناء المهرجان ، بعد ان شعر الجميع فى الهند أن الحركة القومية المطالبة بالاستقلال تزداد شدة وعنفا يوما بعد يوم .. حقا لقد اتخذت طابع العصيان المدنى أو المقاومة

السلبية ، ولكن اتضح أن هذا اللون من المقاومة أجدى وأشد أثرا من المقاومة الايجابية ··

وكان صديقه « داريا » قد زاره فى بونا قبل ذلك ببضعة شهور ، وطلب منه أن يذهب الى نائب الملك فى الهند ·· وينصحه بقبول الطلبات المعقولة لزعماء حركة المقاومة ··

وكان الصديقان قد اتخذا فى الحياة طريقين مختلفين منذ خمسة أعوام · فقد اختار « داريا » ان يتبع غاندى ، واضعا نفسه وكل ما يملكه بين يدى هذا الزعيم الضئيل الجسم القوى الارادة ·· ولكن « دافيد » رفض أن يوافقه على هذا النهج فى الحياة

ولكن الزيارة الاخيرة لم تقرب بين الصديقين فى الراى .. فقد لاحظ «دافيد» فورا ان «داريا» قد اصبح بذاته قوة سياسية ضخمة تتبعه الملايين ، ولا هدف له فى الحياة الا استقلال الهند ·· لقد ترك قصره وأمواله وممتلكاته لاخوته ، وخلع ملابسه الا من حزام حول خصره فوق قطعة قماش تتدلى الى ركبتيه ، ثم راح يطوف البلاد ماشيا متنقلا من قرية الى أخرى ، داعيا الشعب الى المقاومة السلبية ، مبشرا بالاستقلال المنشود · ولكن الشعب – رغم هذا كله – كان ينظر اليه على أنه سيد ينحدر من الطبقة الارستقراطية · ومن ثم كان الفقراء والمزارعون يركعون أمامه كلما مر بهم ·· وعبثا حاول هو – «داريا» – أن يقنعهم بأنه واحد منهم ، وأنه لم يعد هناك فرق بين هندى وآخر وأن الجميع لابد أن يتعاونوا للحصول على الاستقلال ، لا فرق فى ذلك بين فقير وغنى ، أو بين صعلوك وأمير ··

ولما يئس « داريا » من محاولة اقناعهم ، انطلق يبحث عن غاندى · فلما تعرف به ، ادرك انه عثر حقا على الروح التى ترمز للهند .. على الزعيم الذى سيقودها الى الاستقلال حتما ذات يوم · ومن ثم انضم اليه ، وأخضع روحه لروح غاندى ، ووضع كل امكانياته تحت أمره ··

وفى أثناء زيارة « داريا » الاخيرة لصديقه القديم « دافيد » ، قال هذا له أثناء الحديث عن الاستقلال :

– اننى أومن بأن لكل شعب الحق فى أنه يحكم نفسه بنفسه يا عزيزى « داريا » ولكن يجب أولا أن يبرهن هذا الشعب على أنه اصبح قادرا على حمل أعباء الحكم ..

وهنا وثب « داريا » واقفا من فرط الغضب وقال :

– كيف يمكن هذا لشعب جائع ، مستعبد ، محروم من خيرات بلاده ؟ ·· لقد عاش الانجليز كل هذه الاجيال فى بلادنا سادة وحكاما دون أن يفهمونا أو يحاولوا التفاهم معنا · لقد حكمونا بالقوة ·· وبالقوة وحدها ، معتمدين فى ذلك على وحداتهم العسكرية ومراكزهم البوليسية المنتشرة فى جميع انحاء البلاد · انهم لم يحاولوا قط أن يكتسبوا حبنا وولاءنا ، مع أننا كنا على استعداد لان نحبهم ·· نعم حتى أنا كنت أحب انجلترا اثناء دراستى فى كمبردج · فعلى الرغم مما كان يحدث ببلادى ، كنت أجد فى انجلترا الشىء الكثير الجدير بالحب ·· ولهذا كان فى مقدورهم أن يكسبونا بالحب والتفاهم المشترك ، ولكنهم آثروا الاعتماد على السلاح

فقال « دافيد » :

– أرجو أن تلاحظ أن الانجليز الان فى بلادكم يتصرفون بحافز الدفاع عن النفس ··

– نعم ، نعم .. انك على حق فى هذا . ولكن لماذا يخافون منا ؟ .. انهم يخشوننا لانهم جعلوا منا أعداء لهم ·· والآن افلتت الفرصة من أيديهم · وهذه الحركة التى بدأت لابد أن تستمر الى نهايتها · ولسوف ترى سنوات من النضال ·· ولكننا سننتصر فى النهاية ··

وانصرف « داريا » بخطوات ثابتة ·· وشعر « دافيد » بالخوف والاشفاق ، لقد كان يؤمن بأن استقلال الهند لابد أن تسبقه حركة تنوير وتوعية وتثقيف للشعب · وقد ساهم هو فى هذا بتلك الشبكة الضخمة من المدارس المتفرعة عن جامعته فى جميع المناطق المتحدثة بلغة الماراثى فى الهند · ولكن كيف يكون الحال لو انتشر الشغب ، وزالت سطوة القانون ، وشاع الاضطراب فى انحاء البلاد ؟ كيف يستطيع ان يؤدى رسالته التثقيفية التعليمية فى بلاد تعمها الاضطرابات والفوضى ؟ !

انه يرى أن غاندى واتباعه من أمثال « داريا » يسبقون الحوادث ، ويتعجلون الامور · وقد كان الاجدر بهم ان يعلموا الشعب أولا كيف يتحمل المسئولية ويشعر بالواجب لينال الاستقلال

وها هو ذا فى بومباى – فى فجر يوم المهرجان ·· السابع عشر من

شهر نوفمبر – وانه ليرى طلائع الفجر تزحف من الشرق ، بينما بقايا قرص القمر الباهت تغيب فى صفحة الماء غربا • وكانت ثمة أنوار كاشفة قوية تعابث طلائع الفجر ، وتتلاعب على الباخرة « رينون »التى تحمل الامير ، وعلى الزوارق التجارية المزينة التى انطلقت تحمل المستقبلين من الانجليز الرسميين والهنود على السواء • وكانت هذه الزوارق قد بدأت تتحرك من الشاطىء على قصف مدافع التحية ، مع أول اشعة من شمس الصباح • وتقدم اليها أولا نائب الملك فى الهند، ثم الحاكم العام فى مقاطعة بومباى متزينا بنيشان نجمة الهند على بزته الرمادية الفاخرة •• وكان معهما اكبر الامراء الحاكمين فى الهند: ثلاثة مهراجات ، ونائبان • وكان المفروض أن يصحب هؤلاء الخمسة الامير فى جولته ، ثم ينضم اليهم بعد ذلك مهراجا كشمير سير هارى سنج ، ومهراجا كومار حاكم بيكانير ، والحاج حمد الله خان نوبال ••

ولم يستطع « دافيد » أن ينكر روعة الاحتفال •• فقد شاهد بعينيه قوة النظام وجمال الحزم ، وسطوة القانون ، ولكنه فوجىء ، بعد أن تم استقبال الامير رسميا على رصيف الميناء ، وبعد أن شرع موكبه الفاخر فى التحرك الى قلب المدينة ، برجل عار الا من ملابس خفيفة مثل ملابس غاندى ، يقتحم الصفوف ، ويتقدم نحو موكب الامير بخطوات ثابتة ، مرفوع القامة ، عالى الرأس ••

وكتم « دافيد » أنفاسه حين رأى أن هذا الرجل هو « داريا » ••

وتوقف الموكب عن الحركة لحظة ريثما أسرع الحراس بالقبض على الرجل •• على « داريا » وحملوه بسرعة الى سيارة الشرطة لكى تنقله الى السجن ••

وهز «دافيد» راسه وهو يتذكر تلك النوبة العجيبة التى اجتاحت الاهالى فى انحاء البلاد •• لقد راحوا يتسابقون فى تعريض أنفسهم لعقوبة السجن لاسباب سياسية حتى اكتظت السجون بمئات الالوف منهم •• بل بالملايين • ولم يكن « دافيد » يدرى على وجه التحقيق •• هل الوطنية وحدها هى التى كانت تدفعهم الى السجن ، أم الجوع والرغبة فى ضمان كسرة الخبز كل يوم ؟

وبعد انصراف موكب الامير ، شاهد « تيد » أباه وهو يهم بالنزول من الباخرة •• شاهده بقامته الطويلة ، وملابسه البيضاء ، ولحيته

الانيقة ، وقبعته الظليلة • ورفع « تيد » يده ملوحا لابيه ريثما يثبت البحارة سلم النزول •• وما هى غير لحظات حتى كان يصافح أباه بحرارة ويقول له :

– ان المهرجان شىء رائع يا أبى ••

– نعم •• نعم •• انني سعيد برؤيتك يا ولدى هلم قبل ان تؤذينا الشمس ••

فابتسم « تيد » وقال :

– لابد أن أتعود عليها يا أبى ••

– طبعا •• طبعا •• لقد حجزت غرفتين فى الفندق •• وسوف نترك الحقائب للحمالين ••

وقال « تيد » لابيه وهما فى طريقهما الى الفندق بالمركبة المغطاة :

– هل تنوى السفر الى بونا غدا يا أبى ؟

– أجل •• الا اذا كنت ترغب فى البقاء بضعة أيام هنا لسبب ما ••

وتردد « تيد » برهة ، ثم قرر ألا يذكر لابيه شيئا عن «آنيز » لانه أولا لم يكن يدرى حقيقة شعورها نحوه •• ولانها – ثانيا – لم تحاول أن تدعوه الى زيارتها فى قصر حاكم بومباى الذى نزلت مع أبيها فى ضيافته • وكل ما حدث أنهما افترقا فى الصباح كما يفترق أى صديقين •• ولما طلب منها أن تاذن له بالكتابة اليها بين الحين والآخر، لم تعترض •• ولكنها قالت له انها لا تميل الى الكتابة كثيرا ، وانها من ثم سوف توجز فى ردودها عليه ..

وقال « تيد » وهو يتذكر هذه المحادثة القصيرة التى جرت بينه وبين « آنيز » :

– اننى أفضل الذهاب الى بونا فى اسرع وقت يا أبى ••

ولما لاحظ « تيد » كثرة الفقراء والمتسولين فى الطريق ، قال متسائلا :

– اننى أعجب لماذا لا تتخذ الاجراءات لاطعام هؤلاء البؤساء وايوائهم

– أعتقد أن هؤلاء المتسولين والفقراء موجودون منذ القدم •• ويبدو أنه لابد من وجودهم بيننا دائما ••

ولاحظ « تيد » أن أباه يتحدث بلهجة الذى لم يعد يهمه أمر الناس كثيرا وكانما انضبت الهند – بكثرة ما فيها من آلام – ينابيع الشفقة

والرحمة والامل فى نفسه !

وقرر « تيد » فى نفسه ، أنه لن يسمح بأن يحدث له شيء من هذا القبيل ، وانما سوف يظل متجدد النشاط ، متجدد الاهتمام بالحياة والاحياء مهما طال به العمر فى تلك البلاد ..

وفى اثناء عودته الى بونا ، شعر أنه لا يعود الى وطنه فقط ، وانما يبدأ حياته الخاصة فى النهاية

وقال الوالد وهما يهبطان من القطار : « ها نحن قد وصلنا .. »

وتلفت « تيد » فى ذهول الى مبانى المؤسسة الثقافية التى بدت من بعيد ، رائعة ، مهيبة ، محفوفة بالحدائق والاشجار ، ثم قال :

ـ ما أعظم ما فعلت يا أبى فى خلال السنوات الخمس الاخيرة ؟

وقال الوالد بهدوء :

ـ لقد أتممت جميع بنايات المشروع الذى وضعته قبل أن تولد !..

ثم اشار الى احدى المنشآت ـ وهما فى الطريق بالمركبة الى المؤسسة ـ وقال : « ان هذه البناية الاخيرة ، هى كلية الصيدلة .. وهى آخر منشآتنا . اما بيوت الطلبة والطالبات فقد ازدحمت بالمقيمين فيها .. »

ثم أشار الى بناية فاخرة رائعة الجمال والتصميم وقال :

ـ وهذه هى كلية البنات الصناعية .. لقد اسميتها كلية « أوليفيا » تخليدا لذكرى والدتك ..

وهبطا من المركبة ، ودخلا ساحة الجامعة .. وما هى غير لحظات حتى صلصل الجرس ، فاندفعت من مبانيها المختلفة جموع الفتيات والشبان الذين توقف بعضهم بالقرب من العميد وابنه ، وأخذوا ينظرون بفضول واعجاب الى هذا الشاب الابيض الطويل ، الهادىء السمات ، مثل أبيه .. وكانوا قد عرفوا أن عميدهم ذهب لاستقبال ابنه « تيد » فى بومباى ..

أما البنات الهنديات ، فقد أخذن يختلسن النظر فى حياء وخجل الى هذا الشاب الوسيم الوقور ، وقد سحبن اطراف السارى ليغطين رءوسهن ..

وقال الوالد لابنه بعد أن قاما بجولتهما فى أنحاء الجامعة :

ـ ينبغى الآن أن نعود الى البيت لنغتسل ونتناول الطعام !

وفى الشرفة الكبيرة ، اجتمع الخدم ليقدموا تحياتهم الى ابن رب البيت . وقد تقدم الواحد بعد الآخر ليضع اكليلا من الزهور حول عنق الشاب ، ثم نظفوا حذاءه من التراب ، ثم أحاطوا به وهو داخل الى البيت كأنه أمير !

وعلى المائدة فى الردهة الكبرى ، رأى أبوه رسالتين ، التقط احداهما وفضها ، ثم قال وهو يقرأها :

ـ انها من المسز والمستر « فوردام » ، وهما يرحبان بك ويقولان انهما سيتركانك الليلة لتستريح ، ثم يحضرا فى صباح الغد لتحيتك ..

أما الرسالة الاخرى فكانت مغلقة وموجهة الى « تيد » .. وكانت من المس « باركر » .. وفتحها وقرأ عبارات الترحيب الواردة بها . وكان يميل الى المس « باركر » منذ طفولته ، ويدعوها العمة « ماى » .. الا أنه كان يعرف أنها كانت تحبه لانه ابن « دافيد » ورغم طفولته ، كان يعلم أنها تعيش على أمل الزواج يوما من أبيه . ولكن مرور الاعوام أخمد هذا الامل ، وأطفأ تلك الومضة التى أدفأت قلب المسكينة بضع سنوات وقال الوالد بعد أن فرغ « تيد » من قراءة الرسالة :

ـ لسوف أصعد الآن واغتسل ، ثم أعود بعد نصف ساعة ..

وقبل أن يختفى وراء الباب البعيد ، توقف فجأة .. ثم أردف قائلا :

ـ لقد غيرت غرفتك بهذه المناسبة يا «تيد» .. ان غرفتك القديمة صغيرة ، ولهذا أعددت لاقامتك الغرفة الكبرى التى فى مقدمة البيت ، والتى كانت مخصصة من قبل لاستقبال الضيوف ..

فقال « تيد » مندهشا لانه لا يعرف سببا يبرر نقله من الغرفة المجاورة لغرفة ابيه :

ـ شكرا يا أبى ..

وعاد الوالد يقول بابتسامة خفيفة :

ـ لسوف افتقدك طبعا ، ولكننى افضل ان تقيم فى غرفة واسعة مناسبة لك الآن ..

وكرر « تيد » الشكر وقد شعر بالسرور ، لان الغرفة الواسعة

أفضل كثيرا ـ ومن جميع الوجوه ـ من غرفته الصغيرة التى كان يقيم فيها وهو طفل

***

وفيما هما جالسان الى مائدة الطعام الانجليزية الفاخرة المصنوعة من خشب الموجنة ، فى البهو الكبير ، قال « تيد » لابيه فجأة : «أين العم « داريا » الآن ؟ »

وقال الوالد : « كان من المفروض أن يكون العم « داريا » هنا لاستقبالك .. ولكنه تعمد أن يعرض نفسه للقبض عليه ، وهو الآن فى السجن .. »

ـ فى السجن ؟!

ـ لقد اصبح « داريا » من انصار غاندى المتعصبين ..

ـ ولكن لماذا السجن ؟!

ـ هكذا أراد .. ويبدو أن نوبة من جنون السجن قد اجتاحت البلاد . وأنا أعلم أن الحاكم العام يشعر بالقلق الشديد .. انه لا يعارض فى استقلال الهند ، ولكنه ـ مثلى ـ يرى أن هذا الاستقلال يجب أن يتم فى الوقت المناسب . ولكن « داريا » أصبح شديد التعصب مثل غاندى . وقد أعلن اليوم عن احتجاجه على المهرجان الرسمى فى بومباى .. !

فقال « تيد » مدهوشا :

ـ اننى لم اكن اعرف أن العم « داريا » متعصب .. كل ما اذكره عنه أنه كان رجلا حزين السمات .. !

ـ لقد أصبح رجلا مختلفا عما كان منذ فقد زوجته وأبناءه . وقد كان فى مقدوره ـ كأى هندى ـ أن يتزوج مرة اخرى ، وأن يبدأ حياة عائلية من جديد ، ولكن يبدو أنه كان يحب زوجته الى حد العبادة !

وساد الصمت برهة ، كان الخدم أثناءها ـ فى ملابسهم القطنية البيضاء ـ يرفعون بعض ألوان الطعام ليضعوا غيرها . وأخيرا قال « تيد » :

ـ هل رأيت يا أبى هذا المدعو غاندى ؟

ـ رأيته من بعيد مرة واحدة .. وهو رجل ضئيل الجسم دميم الوجه ، ولست أدرى أى شىء فيه جعل « داريا » يتعصب له على

هذا النحو ..

ـ لابد أن فى هذا الرجل قوة خارقة للعادة .. اننى أتمنى أن أراه وأتحدث معه ..

ـ وأنا أنصحك أن تبتعد عنه وعن حركته ..

وكان فى نبرات صوت الوالد من الحدة والجفاف ، ما جعل « تيد » يلزم الصمت لحظات قبل أن يقول : « أرجو على الاقل ألا تعارض فى زيارتى للعم « داريا » فى السجن »

فتردد « دافيد » برهة ، ثم قال :

ـ لا بأس .. ولكننى أعتقد أنه لن يمكث فيه طويلا .. ان الحكومة تفكر فى اطلاق سراح المسجونين السياسيين حتى لا تجعل منهم زعماء !

***

وسمح حراس السجن للشاب النحيل بدخول السجن لزيارة « داريا » .. وكان يحمل اذنا خاصا يتيح له التحدث مع السجين داخل غرفته ، وليس من وراء الحاجز الحديدى . وما كاد « داريا » يرى الشاب حتى عرفه على الفور ، فنهض لاستقباله مدهوشا وهو يقول : « تيد .. ابنى .. وابن صديقى .. »

وهتف الشاب وهو يعانقه بحرارة :

ـ لقد جئت اليك ياعمى « داريا » بمجرد ان سنحت الفرصة ..

ـ ألم يعارض والدك فى هذه الزيارة ؟

ـ لا ..

وجلس الاثنان يتبادلان الحديث .. وراح « داريا » يقص تاريخ حياته على الشاب « تيد » .. فلما وصل الى كارثة وفاة زوجته وابنائه فى الوباء ، قال :

ـ وقررت بعدها أن أعيش عيشة « السادو » (١) . ومن ثم وزعت أموالى وممتلكاتى على اخوتى ، وارتديت أبسط الملابس ، وانتعلت صندلا ، وسرت اطوف القرى دون أن استجدى الطعام ، كما يفعل « السادو » عادة ، لانى لم أزل اكثر ثراء من القرويين .. ولهذا

(١) السادو فى الهند كالمجذوب فى مصر

فانى أقدم اليهم — من القليل الباقى معى — حين اراهم يوشكون على الموت جوعا ..

ثم أردف « داريا » بعد لحظة صمت قائلا :

— « تيد » .. اذا اردت أن تعرف الحقيقة عن الهند ، فاذهب الى القرى .. !

ولم يقل « تيد » شيئا ، وانما ظل ينظر فى صمت وسكون الى صديق أبيه وهو يستطرد قائلا :

— وطفت بالبلاد من غربها الى شرقها ، ومن شمالها الى جنوبها ، بمفردى وعلى قدمى . ونمت مع الفلاحين ، وأكلت من طعامهم ، واستمعت لاحاديثهم .. وكنت أمضى فى بعض الاحيان الايام والاسابيع فى قرية واحدة حتى أعرف أهلها وكأنهم اهلى . ودفنت احزانى فى احزانهم ، ونسيت حرمانى من زوجتى وأولادى وانا اشهد وفياتهم التى تحصى بالآلاف ومئات الآلاف . وهكذا رأيت بلادى على حقيقتها .. بلاد يسكنها شعب جائع فقير جاهل .. بلاد يقيم أهلها على أرض خصبة . ولكنها لم تكن لهم يوما . وانما هى للاقطاعيين الطغاة الثراة ، وللمرابين الجشعين .. أن ملاك الاراضى لا يهمهم منها الا ايراداتها . وهكذا يشيع البؤس والخراب فى كل انحاء البلاد .. ومن ثم نسيت كل ماضى ، وأصبحت رجلا آخر تشتعل فى صدره نيران الرغبة فى انقاذ البلاد .. ثم ..

وتوقف « داريا » برهة قبل ان يستكمل عبارته قائلا :

— ثم رايت غاندى . .

وضم « داريا » كفيه وعاد يقول :

— اننى بطبيعتى لست متعصبا لذلك الرجل .. لا .. ان التعصب يعمى ويصم .. ولكننى رايت الرجل على حقيقته .. انه مواطن هندى مخلص وهب حياته لبلاده والتضحية يا « تيد » هى المختبر الحقيقى .. والرجل الذى يضحى بكل شىء فى سبيل غيره ، يمكنك أن تعتمد عليه وتؤمن به . وقد آمنت بغاندى وتبعته ..

وبعد فترة من الصمت ، قال « تيد » :

— ما هى آمالك فى الحياة ياعمى « داريا »

— آمالى أن أرى سكان بلادى أحرارا .. أن أراهم قادرين على

الاعتماد على انفسهم .. أراهم ملاكا للاراضى التى يعملون فيها ، وأحرارا فى اختيار الحكومة التى تنظم حياتهم .. آمل الى أن أراهم يعيشون حياة محترمة قائمة على التعاون المشترك

ثم رفع وجهه الى السماء ، وأردف قائلا :

— لسوف أراهم يوما هكذا .. سأرى اللحم يكسو هياكلهم العظمية ، ولن يبكى أطفالهم بعد من الجوع لانهم سيجدون كفايتهم من الطعام

— سوف تتحقق أمانيك بمشيئة الله ..

ونهض « تيد » استعدادا للانصراف وهو يقول :

— يجب أن أنصرف الآن يا عمى « تيد » .. وأعترف لك أنك تركت فى نفسى أثرا قويا ، لا بأقوالك ، وانما بأفعالك ..

وقال « داريا » مودعا :

— أرجو أن تأتى لزيارتى بين الحين والآخر ياولدى .. فانزيارتك تمنحنى شيئا من السعادة فى هذا العالم الحزين

— لسوف آتى يا عمى ، ولكن أبى يقول ان الحاكم العام سوف يطلق سراحك فى أقرب وقت ..

— اذا اطلقوا سراحى فسوف أجعلهم يقبضون على مرة أخرى .. يجب أن اتحدى قوتهم دائما بقوتى الفردية . وأقول لك الآن ان غاندى نفسه فى طريقه الى السجن قريبا ..

— أرجو ألا يحدث هذا ..

— هل رأيته ؟

— لا ..

— عندما تراه ستعرف ماذا ينبغى علينا أن نتبعه .. انه الانسان الوحيد الذى يفتح اعيننا على الطريق الصحيح نحو الاستقلال . ثم من نكون نحن ؟ اننا شعب بلا أسلحة ..

— يجب أن أنصرف الان ياعمى « داريا » ..

— انصرف يابنى .. ولكن أرجوك أن تعود لزيارتى

واعاد « تيد » الى بونا وهو يعجب لماذا تخلى « داريا » عن حياته الماضية ليتبع غاندى . لقد كان يعرف أن « داريا » رجل من الطبقة الثرية ، يحب الحياة ، ويهفو الى ملذاتها ، ويضيق بمكارهها ،

مما الذى دفع به الى هذا الطريق الجديد .. الى التقشف والحرمان والتضحية بكل شىء ؟..

هل فعل هذا ارضاء لله ؟ !

ان « تيد » يهز رأسه .. انه يشعر أن « داريا » يعلم تماما ان الله غنى عن مثل هذه التضحيات ، اذن فمن أجل من ؟ من أجل ارضاء من ؟

وخيل اليه انه يسمع هاتفا يقول :

— من أجل الانسان ..

واحس « تيد » بقلبه يخفق .. وشعر كأن ومضة ما اخذت تنير اعماق نفسه ، ولكنه اخمدها بسرعة . انه لايريد الان أن يغوص الى اعماق نفسه .. انه شاب ، والمستقبل يبدو أمامه لامعا .. وفى هذا المستقبل تبدو صورة « آنيز لينلى » ، وان هذه الصورة لا تبارح ذهنه .. انه يريد أن يزداد معرفة بها .. أن يراها فى حياتها الخاصة بين والديها حتى يدرك على وجه التحديد نوع هذا الحاجز الذى يقوم الآن بينه وبينها

***

واخذت الايام تمر وتباعد بينه وبين حياته فى نيويورك ، وتقرب بينه وبين حياته وهو طفل فى هذه البلاد . وكانت صور الماضى تتراقص فى مخيلته كلما مرت الايام ، وكلما عاش فى تلك البلدة التى ولد فيها ، بين أهلها ، وفى لياليها الحارة ، وبين الطلبة والطالبات الذين يدرس لهم اللغة الانجليزية

وكانت « آنيز لينلى » ترسل اليه كل اسبوعين خطابا ردا على رسائله اليومية اليها . وكان يعرف أن الحافز الذى يدفعه الى كتابة رسالة يومية اليها ، هو شعوره بالوحشة ، أنه لم يكن يجد فى حياته هذه انسانا — رجلا او امراة — يستطيع أن يتخذه صديقا يبادله الاسرار . وكانت التقاليد الهندية لا تسمح له بأن يتخذ من احدى الفتيات الهنديات صديقة يستريح اليها . أما الاجانب المقيمون بالبلدة ، فلم يكن بينهم من يصلح ان يتخذه صديقا . فالمستر والمسز « فوردام » عجوزان ثرثاران لا يكفان عن الحديث عن ابنتهما « روثى » التى تستكمل دراستها فى اوهيو . وقد اطلعاه على

صورتها .. فاذا هى فتاة ممتلئة الجسم ، بريئة الوجه ، صغيرة الشفتين ، واسعة العينين ، يبدو انه ينقصها الكثير من الذكاء ..

اما المس « باركر » ، فكان يتجنبها رغم علمه بأنه يقسو عليها .. انها حقا تكبره بنحو عشرين عاما . وكان يمكن أن يتخذ منها صديقة كأمه ، ولكنها كانت من النوع الذى يجتر آلام الحياة فى صمت يجعل الوجه يبدو دائما مكتئبا ...

وهكذا كان يجد عزاءه وسلواه فى كتابة الرسائل الى « آنيز » وفى قراءة رسائلها اليه المرة بعد الاخرى . ولكن الشىء الذى ظل يحيره هو تحفظها الشديد فى رسائلها . انها لم تحاول ذات مرة أن تتجاوب معه فى حرارة الكتابة .. انه يكتب اليها عن كل شىء ..عن نفسه ، وعن مشاعره ، وعن عمله ، وعن سكان البلدة ، وعن أبيه ... ولم ينس بطبيعة الحال أن يلمح لها بحبه .. مجرد تلميح .. ولكن اى فتاة ذكية تستطيع أن تدرك مابين السطور ..

فلماذا تتخذ هذا الموقف المتحفظ ؟!

هل هذه طبيعتها كفتاة انجليزية لا تكشف عن مشاعرها ببساطة ؟

أم .. أم ماذا ؟

وقرر أن الوقت قد حان لكى يذهب لزيارتها ، ويعرف بصفة نهائية حقيقة شعورها نحوه !

الفصل السابع

لقاء الحبيبين

ووصل الى كلكتا فى يوم قائظ الحرارة .. ومضى الى الفندق بعد رحلة مجهدة مليئة بالغبار ؟ وأسرع تابعه قبله بعد أن أودع الحقائب فى الفندق ، ليعد له الحمام الساخن والشاى ، وفى ردهة الفندق تلكأ « تيد » قليلا أمام مكتب الاستعلامات ، وهو يرجو أن يجد فى انتظاره رسالة من « آنيز » تدعوه فيها الى زيارتها عقب وصوله .

وقد وجد فعلا بطاقة دعوة ، لا للغداء ، وانما للشاى . وكانت كلمات الدعوة الموجزة مكتوبة على ورق يحمل شعار الحاكم العام ، وكأنها تذكره بمكانتها الاجتماعية . ولكنه تذكر أن من الطبيعي أن تكتب « آنيز » — وهى تعيش مع ابيها الحاكم فى قصره — على ورق رسمى .

ووقف برهة والبطاقة بين أصابعه ، ثم شعر بالدماء تتصاعد الى وجهه فجأة وهو يذكر كيف كان يفضى اليها بمشاعره الصريحة التى لا ينقصها الا الحب الصريح ..

حسنا .. لسوف يغتسل ويستريح ، ثم يمضى اليها فى موعد الشاى . وربما أنفق بعض الوقت فى دراسة لغة الماراثى ، وكان قد قرر أن يتعلم جميع اللغات الرئيسية فى الهند . وكان فى الشهور الاخيرة قد استطاع أن يتعلم لغتين منها .. ولكنه لم يكن يدرى على وجه التحديد ماذا سيفعل فى الهند الا اذا رأى « آنيز » واستقرت علاقته معها على وضع متين

وصعد الى الجناح المحجوز له بالفندق ، حيث استقبله تابعه الخاص قائلا :

— ان الحمام جاهز على الطريقة الانجليزية ياسيد ..

فرد عليه « تيد » قائلا :

— حسنا .. اذهب الان واطلب لى بعض الطعام ، ثم استرح ، لانى سأنام بضع ساعات ..

— نعم ياسيد ..

***

وكانت حدائق قصر الحاكم العام تدل على الابهة وروعة الحكم . وكانت تمتد على جوانب القصر الى مساحات واسعة لا يصل الى نهايتها البصر . ومرت المركبة التى يستقلها « تيد » بين صفين من الاشجار العالية حتى وقفت امام باب القصر الخارجى . وهبط «تيد» وقال لتابعه ولسائق المركبة : « يمكنكما أن تعودا بعدساعتين او تنتظرا اذا شئتما »

فقال التابع : « سوف ننتظر »

وصعد « تيد » الى الباب الواقع وراء بضعة سياجات مانعة للبعوض .. ولما صلصل الجرس ، فتحه خادم من طائفة السيخ فى ملابس رسمية ، فقال له « تيد » :

— الانسة « آنيز لينلى » ..

فقال الخادم بصوت مهذب :

— انها فى انتظارك ياسيد ..

ثم ذهب به الى غرفة الاستقبال الواقعة على يسار البهو الضخم .. وماكاد يجلس لحظة ، حتى اقبلت « آنيز » بقامتها الطويلة ، وبملابس التنس البيضاء .. وكان وجهها شاحبا رغم الحمرة الخفيفة التى علته وهى تصافح « تيد » ..

وقال لها الشاب فى لهفة ، وهو ياخذ يديها بين يديه :

— « آنيز » ؟

وراح يرنو الى وجهها الباسم ، وشعر برغبة مفاجئة فى ان ينحنى ويقبلها .. ولكنه كان يدرك انه لو فعل هذا لاثار غضبها ..

وقالت له ببساطة :

— لقد وصلتك دعوتى كما ارى ، لانك جئت فى الوقت المحدد . ولكننى اخشى ان يكون الجو الان غير مناسب للعب التنس ، وان كان مناسبا لان نجلس هنا فترة حتى تخف درجة الحرارة ..

وجلست على مقعد مرتفع من خشب الورد ، بينما جلس هو

على مقعد صغير مذهب ، بجانبها .. وقد اصر على أن يعرف فى هذه الزيارة موقفها منه نهائيا ..

قال لها :

— لقد جئت اليك من مسافة بعيدة جدا ، وكنت قد انتظرت هذه الزيارة طويلا . ولو كان الامر بيدى لقمت بهذه الزيارة فى الخريف الماضى عندما ذهبت الى منطقة الاقاليم المتحدة لزيارة صديق ، ولكنك رفضت ..

فقالت مراوغة لتغير مجرى الحديث :

— ومن هو ذلك الصديق ؟

— هندى من أصدقاء ابى .. وقد اعتدت ان ادعوه عمى .. انه « داريا سابرو » ..

— آه .. اننى سمعت بهذا الاسم . ويقول أبى أن الحكومة كادت أن تنعم عليه بلقب سير لولا انه انضم الى غاندى ..

— أحقا ؟ ولكننى اعتقد انه ماكان ليقبل هذا الانعام ..

ولما راى فى عينيها ظلا من الاستياء ، أسرع يقول :

— ان أبى و « داريا » صديقان منذ اعوام عديدة .. ولكنهما الان مختلفان ، لان ابى لا يؤمن بمبادىء غاندى ..

ثم توقف فجاة عن الحديث ، وقد شعر انه اخطأ فى محاولته ارضاءها على حساب غاندى .. اما هى فقد ابتسمت قائلة :

— يسرنى أن يكون هذا هو راى والدك ..

وهنا قال فى اصرار :

— نعم .. ولكننى لا احب ان أحتمى وراء ابى .. فانا لا أعلم بعد ان كان غاندى على خطأ ام على صواب ، فان هناك اشياء كثيرة فى الهند لا أعرفها .. ان الهند التى عرفتها طفلا كانت لطيفة صافية مخلصة .. وربما كان هذا لانى نظرت اليها بعينى طفل . أما الان فان كل شىء يبدو أمامى معقدا ، وخاصة بعد رؤية « داريا » فى السجن ، فان ماسمعته منه ضاعف من ارتباكى ..

فسألته قائلة :

— لماذا ؟ .. لقد حاول التظاهر أثناء مهرجان الامبراطورية !

وهنا قال « تيد » :

ـ انك أنت التى اريد التحدث عنها ، لا الامير ، ولا « داريا » ، ولا السياسة .. بل ولا الهند ..

وتناول يدها الصغيرة بين يديه وابقاها برهة ، حتى اذا شعر انها لا تتجاوب معه ، تركها برفق .. وهنا نهضت هى وقالت :

ـ هلم نمضى الى ساحات التنس ، فهى تقع تحت ظلال الاشجار على اية حال .. كما ان الليل ينسدل بسرعة بعد الغروب ..ولسوف يحضر ابى ليرانا هناك ..

وسارا معا بين ممرات الحديقة التى جلس فيها عدد من السيدات والرجال البيض تحت المظلات ، بينما راح الخدم الهنود يقدمون اليهم الشاى والحلوى . وكان هناك عدد آخر من النساء والرجال ، فى سن الشباب ، يلعبون التنس فى ساحاته العديدة ..

وبعد ان قامت « آنيز » بتقديم « تيد » الى ضيوف القصر ، ذهبت به الى ساحة تنس خالية حيث خلع جاكتته ، واختبر أحد المضارب ، ثم بدا اللعب معها . وكسبت هى النقط الاولى بسرعة ، ولما وجد انها بارعة اكثر مما كان يتوقع ، قرر ان يركز اهتمامه ، وان يلعب بكل قوته ، حتى استطاع اخيرا ان يربح ثلاث جولات ضد جولتين . واخيرا قال وهو يمسح حبات عرقه :

ـ انك بارعة جدا فى اللعب ..

ـ هذا مستحيل والا لما انتصرت على ..

ـ لقد بذلت جهدا كبيرا فى سبيل الانتصار ..

ـ ان هذا من حقك ..

ولما تقدم الى منصة الشراب ، ومد يده الى كوب من شراب الليمون المثلوج ، قالت له محذرة :

ـ لا .. لا تشرب من هذا الشراب البارد وانت على هذه الحالة من الاجهاد ..

فقال وقد شعر باصرار ـ لا مبرر له ـ الا يخضع لرغبتها :

ـ ان الرجل الامريكى متعود على هذا ..

وهنا اشارت الى الممر الرئيسى وقالت :

ـ هاهو ذا ابى ..

ورأى « آنيز » رجلا انجليزيا كهلا انيقا وقورا يتقدم ببطء وهو

يتبادل التحيات مع الضيوف .. وأردفت « آنيز » قائلة :

ـ انه يبدو متعبا ، لان الاحوال فى الهند لا تتيح له اية فرصة للراحة ..

وبعد أن قدمته الى ابيها ، جلس الجميع يتبادلون الحديث نحو ربع ساعة ، وفى خلال هذه الفترة ، نظر « تيد » مرتين أو ثلاث مرات الى « آنيز » كأنما يطلب منها أن تنهض وتتمشى معه فى الحديقة على انفراد . ولكنها تجاهلت رغبته الصامتة .. وكان يعلم أن عليه أن يحدد موقفه معها فى هذه الزيارة ، ومن ثم اقترح عليها ـ بكلمات واضحة ـ أن تتمشى معه فى الحديقة ، فاعتذرت بانها لا تزال متعبة بعد مباراة التنس . وعندئذ استبد به الغضب ، ونهض مستأذنا فى الانصراف .. فقالت له :

ـ اهكذا سريعا ؟..

ـ نعم .. وربما أرحل عن كلكتا بعد غد ..

وقد قصد أن يدعها تدرك انه سيبقى يوما آخر حتى يرى هل ستنتهز هى هذه الفرصة وتدعوه للزيارة فى اليوم التالى .. ولكنها تجاهلت هذا القصد أيضا ..

***

وعاد الى غرفته فى الفندق والغضب يستبد به .. وعبثا حاول أن ينام فى الساعات الاولى من الليل . ولما طال به الارق ، نهض ثائرا ، وجلس الى المكتب ، وكتب الرسالة التالية :

عزيزتى « آنيز » :

« لماذا جعلتنى آتى لزيارتك ؟ .. لماذا لم تقولى ببساطة أن علاقتنا التى بدات على الباخرة ليست سوى علاقة عابرة بين اثنين من المسافرين ؟ لماذا تركتنى أرسل اليك كل هذه الخطابات ؟ ولماذا قبلت أن اعرب لك عن حبى بين سطورها .؟ حسنا .. اننى احبك وأريد أن أتزوجك .. ان هناك فارقا كبيرا بيننا .. انه كبير كالهند ... ولكنى أحبك . فاذا كان فى مقدورك أن تبادلينى الحب ، فلن يفرق بيننا شىء .. لا الهند .. ولا المحيط الذى يقع بين بلادى وبلادك .. لسوف تقولين لى اننى شاب متعجل للامور ، وهكذا قلت لى أثناء الرحلة .. اننى فعلا متعجل للامور ، وقد وزنت هذا

عن جدى ، كما ورثت الاصرار عن أبى . ولهذا سوف أزورك غـدا فى الساعة الرابعة بعد الظهر لاعرف اجابتك .. ولن يمنعنى عن هذه الزيارة شىء »

واغلق المظروف على الرسالة ، ثم نام حتى الفجر .. وبعـدها نهض متعجلا وايقظ تابعه النائم امام باب غرفته ، وطلب منـه أن يحمل الرسالة الى المس « آنيز » فى قصر الحاكم العام ، وأن ياتى بالرد ..

وبعد ساعتين ، جاء التابع يحمل هذا الرد الموجـز : « اننى فى انتظارك فى الساعة الرابعة .. آنيز »

***

قالت له وهى تتقدم به الى غرفة الاستقبال الواقعة على يمين البهو الكبير :

ـ هذه هى أرطب غرفة استقبال فى القصر .. وهى ايضـا لا تستعمل الا فى الحفلات الكبيرة .. ويمكننا أن نجلس فيها ونتحدث بهدوء دون أن يزعجنا احد ..

فقال بلهجة جادة : « يسرنى هذا .. لاننى لا أريد أن يقاطعنى احد وانا أتحدث معك الان »

فجلست بالقرب منه فى ثوبها الابيض الرقيق ، وقالت :

ـ هل ترى أن من الضرورى الحديث عن .. عن ..

ـ نعم .. نعم .. هذا ضرورى جدا ..

ـ ولكنك لازلت .. اقصد .. لا يزال امامك وقت طويل قبـل أن تفكر فى الزواج ..

فنظر اليها عاتبا وقال :

ـ لقد امضيت طفولتى فى الهند .. والهنـد بطبيعتها تنضج الانسان بسرعة ، ومن ثم فانا اشعر كانى الان فى الثلاثين من عمرى

وحاولت هى أن تنشغل بترتيب بعض الوسائد حولها ، بينمـا استطرد هو يقول :

ـ المهم الان ان الوقت قد حان لكى اعرف اتجاهك يا « آنيز » .. ان لوالدك نهجه الخاص فى الحياة ، وهو نفس نهج والدى .. ولكننى قد اتخذ لحياتى نهجا مختلفا .. ولهذا اريد أن اطمئن الى

انك ستكونين بجانبى ..

فقالت وهى تركز نظراتها على وجهه :

ـ ماذا تعنى بهذا القول ؟

وكان صوته لايزال هادئا وهو يقول :

ـ انت تعرفين ماذا أعنى ..

فقالت باصرار :

ـ اريد ان أسمع منك ماتعنيه ..

ـ اننى اخشى مما ساقوله .. ولكن لا مندوحة من قوله .. بل يجب أن اقوله لك انت اولا ، وقبل كل انسان .. وهـو انه على الرغم من زيارة ولى العهد للبلاد ، فان الجو ينذر بالاضـطرابات والثورات .. وان « داريا » وغاندى فى جانب ، وأبى وابوك فى الجانب الآخر . وانا حتى الآن لا ادرى فى اى جانب سأكون يا « آنيز » .. اننى فى حاجة الى مزيد من الوقت لاقرر الجانب الذى سـانضم اليه . وان ما أريد ان أعرفه الان هو : هل ستقفين معى ايا كـان الجانب الذى سأختار !

فهتفت قائلة :

ـ ما أغرب ماتقول ؟

ـ اية غرابة فى هذا ؟

ـ ان من يسمعك يحسبك تدبر امرا خطيرا فى الخفاء !

ـ ربما كان الامر بالنسبة الى اكثر من خطير ..!

فابتسمت ببساطة ، وقالت :

ـ اننى لا أتصور وقوع اى شىء خطير لك او بسببك ..

وكانت تقصد انه لايمكن أن يحدث شىء خطير لشاب امريـكى ينحدر من أسرة « ماكارد » المشهورة ..

ثم أردفت قائلة :

ـ الا ترى انك تصور الامور بطريقة مسرحية !

ـ وما الضرر فى هذا ؟..

ـ انك تدفعنى الى الرغبة فى الضحك ..

فتنهد بعمق ، وقال :

ـ انا نلف وندور على غير جدوى . ولهـذا يحسن أن نلتزم

الصراحة يا « آنيز » .. هل تحبيننى ؟
فاحنت راسها قليلا وقالت :
ـ لست أدرى ..
فقال بحماس :
ـ لعلك تحبيننى وانت لا تعرفين ..
ـ ان هناك اشياء كثيرة أهم من مجرد الحب ..
ـ مجرد الحب ؟!
ـ نعم .. ان الانسان لا ينبغى أن يقرر مصير حياته على أساس العاطفة وحدها ..
ـ هذا ما أفعله ..
ـ ان هذه طبيعة المراة ..
فقال بشىء من المرارة :
ـ ماعدا المراة الانجليزية كما أظن !
فاومات براسها ببرود ، وقالت :
ـ وخاصة المراة الانجليزية التى تعيش فى الهند .. وفى هذه الفترة بالذات !
ـ ولماذا هذه الفترة بالذات يا « آنيز » ؟
فقالت وقد زوت حاجبيها مفكرة :
ـ يمكنك ان تتصور هذا الموقف عندما تنضم انت الى غاندى ، وانا زوجتك .. ان هذا الموقف سيجعلنى انفصل تماما عن الحياة التى نشأت فيها .. عن والدى ، وعن بلادى ، وعن تقاليدى ..وعن كل شىء اعتز به !
فقال :
ـ ولكنه لن يفصلك عنى ، وهذا هو المهم ..
ـ آ ه .. نعم .. ربما . ولكننى لم أتبادل معك بعد هذا الحب الذى يحتم مثل هذه التضحيات .. لا يزال فى الوقت متسع للتراجع !
فخفق قلبه بعنف ، وقد ادرك أن هناك احتمالا فى أن تحبه .. ان حبها له الان ليس كبيرا .. ولكن من الممكن أن يكبر مع الايام .
ومن ثم قال فى امل :

ـ اذن فأنت تحبيننى .. قليلا !
ـ ان ما أعرفه أننى قد أحبك يوما .. وانا أريد أن احبك يا « تيد » لو انى فقط تأكدت ..
ـ تأكدت من اى شىء ؟!
ـ من ان حبى لك لن يحطم حياتى التى نشأت عليها ..
فنظر اليها فى دهشة ولهفة ، وقال :
ـ ماذا تعنين يا « آنيز » ؟ !
وفجاة قالت :
ـ ان اسهل طريقة لتوضيح الامر ، هى أن أقول انك لو كنت انجليزيا لما ترددت فى الزواج بك .. ولكنك امريكى !
وفوجىء « تيد » بهذا التصريح ، وقال فى دهشة بالغة :
ـ ما علاقة هذا بالموضوع ؟ .. انك تدهشيننى يا « آنيز » .. ماكنت اظن أنك متعصبة لجنسيتك الى هذا الحد !
ـ ليس فى الامر اى تعصب يا « تيد » .. انك ، كامريكى ، لا تستطيع أن تفهم بسهولة وجهات النظر الانجليزية . انك لاتعرف حقيقة مسئولياتنا هنا . انك قد تغضب منى أشد الغضب ـ حتى وانا زوجتك ـ اذا انضممت الى جانب ابى فى هذا الصراع ، وذلك عندما تعتقد انه مخطىء . اننى ـ بصراحة يا « تيد» ـ اعرف موقفى من الان .. اننى ساقف بجانب قومى مهما تكن الظروف ، لانهم على صواب فى رأيى ..
ـ آه .. فهمت ..
وكان قد فهم فعلا .. فهم انها لا يمكن قط أن تتزوجه لذاته .. انها ، فى هذا الموقف تبدو كأية فتاة انجليزية من طبقتها .. انها تضع مسئولياتها نحو بلادها وقومها قبل عواطفها . ولم يسعه الا أن يشعر بالاعجاب نحوها ، مهما يكن ادراكه لخطئها .. !
وفجاة قال لها :
ـ لشد ما أتمنى لو اخذتك الان بين ذراعى ياحبيبتى .. هل تسمحين لى بهذا ؟!
فهزت راسها قائلة :
ـ لا .. لا .. ارجوك يا « تيد » .. اننى لا أريد أن اتخذ

قرارا ضدك . ولاشك ان قرارى سيكون ضـــدك لو انك فعلت هـــذا ٠٠ !

فنهض وقال وهو يأخذ يدها بين يديه ، دون أن تسحبها منه :

ــ حسنا اذن .. سنترك الامر كما هو فى الوقت الحاضر ... أم لعلك تريدين أن ننفض أيدينا منه تماما ؟

فصمتت برهة ثم قالت :

ــ اننى آسفة يا « تيد » .. لو كنت الآن أصـــغر سنا بعشر سنوات ، لما ترددت لحظة فى القاء نفسى بين ذراعيك . حسنا .. ليبقى الامر كما هو الان حتى يزداد الموقف وضوحا ..

ــ اى موقف تعنين ؟ ..

ــ موقفى .. وموقفك ؟

***

وقرر « تيد » أن يعود الى بونا عن طريق منطقة الاقاليم المتحدة ٠٠ وقد اتاحت له عودته من هذا الطريق ان يرى الهند على حقيقتهـا .. فراى سكان القرى وهم يعيشون حياة كلهـا جوع وحرمـــان وعرى ومرض وفاقة ٠٠ رأى الوجوه الشـــاحبة ، والاجســـام الهزيلة ، والطفولة المعذبة ، والارض التى لا تجد الايـــدى العاملة القوية ، والبيوت المصنوعة من الطين ، ولمس اثر الكوارث الطبيعية ، والمجاعات المتوالية ٠٠

لقد راى وجها جديدا للهند لم يكن يعرفه وهو يعيش مع أبيه فى بونا حيث المؤسسة الضخمة التى يجتمع فيها ابنـاء القـــادرين من الهنود ٠٠

وعاد الى بونا بعد اسابيع بقلب ملىء بالهموم والاحزان ،حتى كاد ان ينسى ومضة الحب التى اضاءته بضعة شهور ..

واستقبله والده فى شىء من العتـــاب الصامت ــ كعـــادته ــ ثم قال له :

ــ لقد وزعت حصصك على المدرسين المســاعدين .. فهل تحب أن أعيدها الى جدولك ؟!

فأومأ « تيد » برأسه وقال : « اجل يا ابى »

وكان يعرف أن اقامته فى بونا لن تطول ٠٠ لقد شعر أثناء رحلة

العودة أن قبسا من شعلة قدسية اضاء قلبه وبدأ يرشده الى الطريق الذى ينبغى أن يسلكه فى الحياة ٠٠ ولكن معالم هذا الطريق لم تكن قد وضحت بعد !

ولم تلبث أن وضحت له هذه المعالم فى ذات ليلة من ليالى شـــهر يونيه الحارة الحارقة ، وبعد خلاف عنيف مع ابيه لاول مرة .. وكان سبب الخلاف شاب هندى يدعى جيهار ــ ابن رجل موفور الثراء من طائفة السيخ يدعى السردار سنغ ــ وكان جيهار ، عقب تخرجه فى قسم الاداب بجامعة « ماكارد » ببونا ، قد اعلن لابيه وللسيد « دافيد ماكارد » انه قرر أن يتخلى عن كل شىء فى الدنيا ليجوب البلاد مبشرا بالقومية والوطنية ، متتبعا خطى غاندى فى بعث الوعى الاســـتقلالى بين جموع الشعب فى القرى والغابات ..

وثار والده ثورة عارمة ، وأسرع الى « دافيد » يحمله مسئوليـــة هذه « الكارثة » التى ستحرمه من ابنه الوحيد . وبذل « دافيد » كل جهد ممكن لاقناع الشاب « جيهار » ليتخلى عن فكرته ، ويمضى مع أبيه الى ضياعه الواســـعة .. لكن الشـــاب ظل على اصراره بكل ادب واحترام . ولما عجز « دافيد » عن اقنـاعه ــ وكان جالسا فى غرفة المكتب معه ومع ابنه « تيد » ــ قال له فى النهاية :

ــ حســنا يا « جيهار » .. اننى لا اســتطيع ان ارغمـك على ان تعيش حياة معينة ٠ ولكن هناك عبارات يجب الا نغفلها ونحن نقرر مصائرنا . ولهذا سوف اتحدث معك غدا مرة أخـرى بعد ان تفـكر هذه الليلة جيدا فى واجباتك نحو ابيك ، ونحو أسرتك التى تعلق عليك آمالها .. بل وفى وطنك الذى يمكن أن تخدمه بوسائل مختلفة ..

فنهض « جيهار » وقال بصوت خافت مهذب :

ــ حسنا يا سيدى .. لسوف اعود اليك غدا ..

وبعد انصرافه ، نهض « دافيد » ومد يده ليطفىء المصباح ، ولكن ابنه « تيد » قال له فجأة : « انتظر يا ابى لحظة .. »

فنظر « دافيد » اليه ويده على المصباح ، وقال : « ماذا يابنى » ؟

ــ اننى ارجو أن تكف عن محاولة اقنـــاع « جيهـــار » بالتخلى عن فكرته ..

فقال الوالد بشىء من الحدة : « لمـــاذا ؟ »

— لأن فكرة « جيهار » تقوم على رسالة انسانية ووطنية ضخمة .. انه يريد ان يوقظ فى الهند كلها روح البذل والتضحية

— اننى لا افهم ماذا تريد ان تقول ..

— ان « جيهار » قد يكون « مسيح » الهند ..

— ان هذا الحاد وكفر يا « تيد » .. أو على الاقل جنون !

وقال « تيد » وقد تألقت عيناه ببريق غريب :

— لشد ما اتمنى لو ان هذه الفكرة قد خطرت ببالى قبل «جيهار» .. ولكنى لست هنديا ..

فهتف الوالد ثائرا :

— « تيد » لن اسمع منك بعد ذلك شيئا ..

— ولكن يا أبى ..

— لقد تأخر الوقت جدا .. وأنا فى اشد حالات التعب !

— حسنا ياأبى .. ولكننى أقول بصراحة أننى سوف أتحدث مع « جيهار » غدا فى هذا الشأن ..

فقال الوالد فى هدوء مفاجىء :

— اننى أرجوك الا تفعل .. فان على واجبا نحو السردار سنغ .. انه لشىء مؤلم ان تكون السبب فى حرمانه من ابنه الوحيد ..

— هل أفهم من هذا انك ستحاول ان تمنعه من تحقيق هدفه ؟

— طبعا لا .. اننى سأحاول ان اقنعه بانه ليس من الخير ان يخرج عن متاع الدنيا ويعصى رغبات أبيه ..

— ولكن يا أبى ..

— ولا كلمة بعد ذلك ..!

واطفأ الوالد المصباح ، ثم صعد الى غرفته .. وبقى « تيد » واقفا فى مكانه يفكر فيما قاله « جيهار » بلهجة الهادىء المطمئن الواثق مما ينوى ان يفعل ، المصر على موقفه اصرارا لا تزحزحه الجبال ..

ورفع « تيد » عينيه عبر اسلاك النافذة الى الظلام .. ثم الى السماء .. وراح يتساءل : من اين هبط هذا الضوء الى قلب « جيهار » من أين انبثقت هذه الشعلة المقدسة فى أعماق نفسه ؟

وتمنى لو انبثقت هذه الشعلة المقدسة ايضا فى اعماق نفسه لكى يرى معالم طريقه فى الحياة . ولما لم تتحقق امنيته ، أوى الى

فراشه بقلب ملىء بالاحزان والقلق ..

ونهض مع الفجر ، وذهب الى الكنيسة الصغيرة الملحقة بالجامعة ، حيث اعتاد الطلبة المسيحيون أن يترددوا عليها فى بكور الصباح للصلاة .. وكان يتوقع ان يرى « جيهار » فيها . وقد حدث ما توقعه ، اذ مالبث ان شاهده واقفا بجوار المحراب ، وقد رفع عينيه الى اعلى ، كأنما يرى شيئا لا يراه أحد غيره

وقال « تيد » : « جيهار ! »

واستدار « جيهار » ، ثم ابتسم وقال : « استاذى ! »

— كنت أعتقد أنى سأجدك هنا . حسنا .. لنتحدث معا فى هذا الامر الذى ازعج أبى واباك . كيف لم تخبرنى قبل اليوم بما عقدت عليه العزم يا « جيهار » ؟

فقال « جيهار » بصراحة :

— لاننى لم اكن اعرفك تماما .. ولم اكن أعرف ان أمورى تهمك

فبدا الاهتمام على وجه « تيد » وقال :

— يبدو أننى لم أحسن القيام بواجبى كمدرس لك .. لاننى لو احسنته لجعلتك تعرف اننى مهتم بأمر كل تلميذ من تلاميذى ..

حسنا .. هلم نجلس هنا ونتبادل الحديث بهدوء ..

وجلس الاثنان على مقعد خشبى بالقرب من المحراب . وقال « تيد » وهو يرى الابتسامة لا تزال تسطع على وجه « جيهار » :

— الن تذهب مع ابيك الى بلدتكما اليوم يا « جيهار » ؟

فقال بهدوئه المعتاد :

— بل سأذهب معه واعيش فى ظل الاسرة بعض الوقت حتى يفهم تماما حقيقة مشاعرى ..

— واذا لم يفهم ؟!

وظل وجه « جيهار » على هدوئه ووقاره ، وهو يرد قائلا :

— فى هذه الحالة يجب ان امضى الى سبيلى ..

— انك لا تزال فى ريعان الشباب يا « جيهار » !

— اننى لست أصغر من ان أعرف واجبى .. فلو اننى لم أر مايجب أن أفعل ، لقبلت أن أعيش مع أبى ، أو أن أغدو محاميا ، أو اشتغل بالسياسة محترفا . ولكننى أدركت حقيقة ما ينبغى أن أفعله فى حياتى ..

— انك يا « جيهار » لا تستطيع فى الواقع ان تستجدى طعامك كما تفعل طائفة السادو ، لان الناس جميعا يعرفون من انت ..

— اننى لن أكون بحاجة للاستجداء لان الله سيمنحنى ما انا بحاجة اليه ..

— ان هذا الامر يبدو لى غريبا وخطيرا فى آن واحد ..

فقال « جيهار » بصوت هادىء مهذب :

— لانك آت من الغرب .. أما نحن الهنود ، فاننا لا نرى غرابة ولا خطرا فى أن يصبح الواحد منا « سادو » يطوف القرى مبشرا ، متخليا عن متاع الحياة الدنيا وزينتها .. ان البلاد زاخرة بهذه الطائفة . ولكننى سأكون « سادو » من نوع آخر .. « سادو » لا ينتمى الى مذهب معين . لانى لو انضممت الى احد هذه المذاهب، فسوف يغضب اتباع المذاهب الاخرى ..

— اذن فقد قررت أن تحمل وعاء و « بطانية » و ..

— نعم .. سأحمل وعائى و « بطانيتى » ، وسأرتدى البردة الصفراء حتى يعرف الجميع اننى « سادو » ، وسأطوف البلاد مبشرا بعهد جديد ..

وصمت « تيد » برهة قبل أن يقول :

— ان كل ما أستطيع أن أقوله لك الان انك تضحى بمباهج الحياة .. مثل « داريا » .. لقد رايته فى السجن ..

وكانت الهند كلها قد عرفت باسم « داريا » .. ومن ثم تالقت عينا « جيهار » وهو يقول :

— هل رايته حقا ؟..

— نعم .. وقد ضحى هو أيضا بكل شيء من اجل وطنه .. ولكنه ليس شابا مثلك . لقد ذاق طعم الحياة .. لقد تزوج وانجب واستمتع بمباهج الدنيا سنوات طويلة .. ولما فقد زوجته وابناءه ، اتخذ هذا الطريق الجديد ..

فقال « جيهار » وقد شردت نظراته :

— اننى فى غير حاجة لان انتظر .. لقد رايت رؤيا .. وربما لم ير « داريا » مثل هذه الرؤيا .. او لعل مأساة اسرته هى « الرؤيا » التى دفعت به الى هذه الحياة الجديدة ..

وقال « تيد » وهو يحاول اخفاء دهشته :

— وما هذه الرؤيا التى رايتها ؟..

— رأيت ملاكا يرسم لى معالم الطريق التى ينبغى أن أسلكها كى اظفر بالفردوس بعد مماتى ، ويكتب لى فيه الخلود

فتنهد « تيد » وقال :

— اننى ارجو الا تكون هذه الرؤية فقط هى السبب فى تغيير حياتك كلها ..

فأجاب « جيهار » قائلا :

— لقد تغيرت حياتى فعلا ..

ولم يستطع « تيد » أن يقول بعد ذلك شيئا ..

***

وفى نفس اليوم .. وفى الساعة السابعة مساء ، كان « تيد » جالسا فى الردهة الكبرى يشرب الشاى ويتناول بعض الفاكهة عندما مر امامه « جيهار » وحياه بأدب ثم تقدم الى غرفة المكتب حيث كان « دافيد » جالسا فى انتظاره . وظل « تيد » فى مكانه يتوقع أن يستدعيه والده ليشترك فى المناقشة مع « جيهار » .. ولكن شيئا من هذا لم يحدث . وأخيرا ، بعد ساعة ، خرج « جيهار » شاحب الوجه، مرهق السمات ، ومر به فى صمت وهو يحييه تحية الهند التقليدية ، ثم انصرف ..

ونهض « تيد » ودخل غرفة المكتب حيث وجد أباه يتصفح بعض الاوراق ، والقلق والاهتمام باديان على وجهه ..

وقال « تيد » بعد أن ظل واقفا برهة : « أبى .. »

ورفع الوالد وجهه اليه وقال : « ماذا ياتيد ؟ »

— كيف الحال ؟

— اتعنى حال « جيهار » ؟ اننى واثق الان أن المسكين فاقد العقل .. انه بدأ يتحدث عن الرؤى ..

وقرر « تيد » فى نفسه أن يستجمع شجاعته ليقف بجانب «جيهار»، ومن ثم قال :

— ان الكتب السماوية مليئة بمثل هذه الظواهر ..

فحملق « دافيد » فى ابنه مدهوشا وقال :

— هل تعنى انك تبرر موقف « جيهار » ؟

— أريد أن اقول ان ما جاء فى الكتب المقدسة يبرر حدوث مثل هذه الرؤيا ..

فرد الوالد قائلا بحزم : « ان هذا آخر ما كنت أتوقعه من خريجى جامعاتى »

وصمت « تيد » برهة قبل ان يقول :

— اننى أتساءل : هل وجد « جيهار » اخيرا الطريق السليم لخدمة البشرية ؟

— ماذا تعنى ؟

— اعنى أن الطريقة الامريكية القائمة على بناء المدارس والمعاهد والكنائس والمستشفيات فقط — كما هو حادث هنا — لم تحقق الهدف المنشود ، فالقرى كما هى .. كل شىء فيها لم يتغير .. الفقر ، والبؤس ، والاقطاع ، واستبداد الملاك بالمزارعين .. وغلبة الشر على الخير ..

فقال الوالد :

— ان هذه الظواهر الاجتماعية كانت موجودة ، وستظل قائمة الى الابد ..

وهنا صاح « تيد » فى احتجاج :

— اذن ما جدوى هذه الخدمات ؟

ولما رأى القلق ينتشر على وجه ابيه ، استطرد يقول بنفس الحماس :

— ان « جيهار » على حق . وانى اتمنى لو كانت لدى الشجاعة الكافية لكى احذو حذوه ، واكرس حياتى لخدمة الانسان وتحقيق العدالة الاجتماعية .. هذه هى روح الدين ..

وارتسمت فى عينى أبيه نظرة فزع .. ولم يستطع « تيد » أن يحتمل اكثر من هذا ، فاستدار وانصرف بخطوات سريعة ..

وراح يتساءل وهو يمضى الى غرفته : ماذا قلت ؟.. هل قلت اننى اتمنى أن افعل مثل « جيهار » ؟ أى ان اتخلى عن كل شىء ، وأمضى فى القرى معلما مواسيا خادما للانسانية المعذبة ؟

وفجأة توقف فى وسط غرفته الفسيحة .. لقد خيل اليه أنه يرى فى الظلام وجها ينم عن الالم والعذاب والحزن والحرمان ..

وجه رجل هندى بائس من أولئك الذين يعيشون فى القرى مهددين بالموت جوعا فى كل لحظة ..

وخيل اليه أنه يسمع صوتا يقول : « وانا .. أليس لى أمل فى حياة أفضل ! »

وفيما هو يحملق فى ذلك الوجه الحزين البائس ، اذ به يسمع باب مكتب ابيه يغلق ..

***

وشعر « تيد » أخيرا أنه رأى معالم الطريق واضحة أمامه .. لقد انبثقت الشعلة المقدسة فى قلبه اخيرا .. مضيئة ساطعة . وبلغ من سعادته انه ضحك لنفسه ، وتمنى لو استطاع ان يقفز فى الهواء ، أو يجرى ، أو يرقص . اخيرا عرف طريقه الجديد .. لسوف يرحل عن بونا ليعيش فى احدى القرى . فما أبسط هذا القرار الذى احتاج الى كل هذه الشهور ليصل اليه .. ألم يقل له داريا : « اذهب الى القرى لترى حقيقة الاوضاع فى الهند » .. اذن لسوف يذهب ، وسوف يعيش حياته هناك .. فى تلك القرية الشمالية التى رآها اثناء عودته ، وقضى فيها يوما كاملا ..

وقال لنفسه :

— لماذا اقتفى اثر أبى ؟.. أليس من حقى ان اعيش كما اريد ؟.. ألأن أبى هو الذى اوجدنى فى هذه الحياة يكون له الحق فى رسم منهج حياتى كما يريد ؟ لا .. لا .. لسوف اتركه .. بل يجب ان اتركه لكى أعيش بمفردى مع الهند ومع نفسى ..!

وظل واقفا منتشيا بهذه الفكرة .. بهذا القرار الاخير .. آه .. ما أسعد الانسان الذى يهتدى فجأة الى طريقه فى الحياة ؟.. انها سعادة أولئك القديسين والرسل والانبياء .. السعادة الالهية المقدسة .. سعادة الانسان الذى لا يهمه شىء من متاع الدنيا وزينتها ، لانه يستمد المتاع والزينة من تحقيق رسالته التى كرس كيانه من أجلها ..

وجلس فى هدوء ، وقد شاع السلام والرضى فى اعماق نفسه . وراح يفكر فيما ينبغى اتخاذه من خطوات لتحقيق هدفه . وتذكر قرية فاهى ، وتصور مايمكن ان يفعله فيها ومع أهلها . نعم .. لسوف يذهب اليها فى تواضع ليتعلم .. ويعلم .. ويفيد .. ويستفيد ..

الفصل الثامن

مفاجآت الحب

قال « دافيد » لابنه تيد :

– اننى لا استطيع ان افهمك يابنى .. !

– وانا لا اتوقع أن تفهمنى يا ابى ..!

وكانا جالسين الى مائدة العشاء فى البيت الكبير المترف . وكان الارهاق يبدو بوضوح على وجه الوالد بعد يوم بلغت حرارته حدا لا يطاق . وكانت الظواهر الجوية تنم على أن الامطار الموسمية توشك أن تنهمر فى اية لحظة ، وقد تأكد لدى الجميع انها لن تتأخر عن منتصف الليل ، وفى الوقت نفسه كان الجو ساكنا جدا ،والهواء مشبعا بالرطوبة ، بحيث لم يستطع أحدهما أن يرغم نفسه على الاكل . ولما فرغ الخدم من حمل اوانى الطعام عن المائدة ، عاد الوالد يقول :

– هل أفهم من قرارك هذا انك نفضت يديك تماما من فكرة الزواج ؟

– لا .. طبعا .. اننى سأرحب بـ « آنيز » اذا قبلت الحياة معى فى تلك القرية ..

فقال الوالد فى اشفاق :

– أرجو أن تكون أعقل وأحكم من أن تعرض عليها امرا كهذا ..

وضحك « تيد » ..

وكان طيلة اليوم يشعر بسعادة لاحد لها ، وهو يضع ملابسه اللازمة وحاجياته الضرورية فى الحقائب التى سيحملها معه الى قرية فاهى ، حيث قرر ان يبنى لنفسه بيتا صغيرا من الطين يعيش فيه كما يعيش اى مواطن فقير فيها ..

ولم يكن هناك – فى رايه – اى سبب يبرر ارجاءه لتنفيذ هـذا القرار ، لاسيما وقد بدات العطلة المدرسية التى ستستمر أربعة اشهر ..

وساله الوالد بصوت جاف :

– هل هناك مايدعو الى الضحك ؟..

– لا ياابى .. ولكننى اعتقد ان الحافز الذى جعل امى تهجر امريكا لتعيش معك هنا ، فى بونا ، قد يجعل « آنيز » تحذو حذوها ..

– ولكن الامر جد مختلف ..

ولم يستطع الوالد ان يوضح هذا الاختلاف .. وبدلا من هذا قرر فى نفسه فجاة ان يكتب رسالة الى « آنيز » – دون ان يعرف « تيد » – ويطلب منها ان تساعده فى اقناع هذا الشاب المتهور للتخلى عن فكرته الرهيبة هذه .. وليجعل هذا التعاون بينهما سرا .. وليكتب لها عن ابنه ، وعن مميزاته ، وعن النواحى الكثيرة التى يمكن ان يستفيد منها اذا هو تزوج من فتاة عاقلة رزينة مثقفة مثلها . .

وقال « تيد » بصوت كله التفاؤل :

– لسوف أتجول فى القرى بضعة أيام قبل أن أستقر فى قرية فاهى ..

وقال الوالد ليثيره :

– اننى مندهش كيف تركت شابا هنديا مثل « جيهار » يؤثر عليك كل هذا التأثير !

– لا .. ليس « جيهار » وحده .. بل ولا « داريا » أيضا .. وانما هى رغبتى فى ان أتخلى عن كل شيء امتلكه عن طريقك او عن طريق جدى ، رغم اعترافى بجميلكما طبعا ، لكى أعيش لنفسى وبنفسى .. لا كواحد من « آل ماكارد »

ولم يجب « دافيد » بشيء .. وانما تذكر ماحدث فى شبابه بينه وبين ابيه ، عندما قرر ان ينفصل عنه ليعيش بالاسلوب الذى قرره لنفسه . ورأى اخيرا ان يبذل جهده لكى يظفر بمساعدة « آنيز » فى هذا الشأن ..

وقبل أن يقول شيئا ، أقبل أحد الخدم وقال :

– ان السيدة والسيد « فوردام » فى ردهة الانتظار

– دعهما يقبلان ..

ولم يكن الضيوف اثنين فقط ، وانما ثلاثة .. ذلك أن المستر والمسز « فوردام » كانا قد اصطحبا معهما ابنتهما الشابة « روثى »، الوافدة فى ذلك اليوم من أمريكا . وقد اقبلت بجسمها المستدير الممتلىء ، وشعرها الذهبى ، وشفتيها الحمراوين جدا ، وعينيها الواسعتين البريئتين ، وابتسامتها التى لا تكاد تفارق شفتيها ..

وقالت أمها وهى تكاد تنفجر من فرط الزهو :

– ابنتنا « روثى » يا دكتور « ماكارد » .. وهذا هو « ماكارد » الابن يا « روثى » .. نرجو المعذرة لحضورنا هكذا بلا موعد سابق .. ولكننا لم نستطع أن ننتظر ..

وقال « دافيد » باسما وهو يتذكر أنه نسى أن يقول لـ « تيد » ان « روثى » ابنة المستر « فوردام » ، ورفيقة طفولته ، سوف تصل الى بونا فى ذلك اليوم قادمة من أمريكا ..

– آه .. لقد جاءت « روثى » أخيرا .. تهنئتى لك يا ابنتى بسلامة الوصول ..

وقالت الوالدة :

– نعم .. ومن حسن الحظ أنها وصلت قبل انهمار الامطار الموسمية .. والا لحاصرتنا فى الطريق ..

وقال الوالد وهو يتطلع الى ابنته فى حب وحنان :

– لقد ذهبت الى بومباى لاستقبالها ومرافقتها الى هنا ..

ثم اضاف معابثا :

– اليست جميلة ؟

وصاحت « روثى » فى احتجاج ضاحك :

– أوه .. ماهذا يا أبى ؟

وقالت امها بحنان :

– ان اباك لم يتغير ياحبيبتى .!

وهتفت « روثى » ضاحكة للجميع :

– انه فظيع !..

وفتحت شفتيها الحمراوين جدا ، وكشفت عن أسنانها البيضاء اللامعة وهى ترسل ضحكاتها العذبة التى اشاعت فى جو الغرفة تيارا من البهجة والانشراح ..

وقالت المسز « فوردام » وهى تنظر الى ذراعى ابنتها :

ــ انك ترتدين فستانا قصير الاكمام يا « روثى » ... وهذا لا يليق هنا .. احرصى منذ الغد على ارتداء فستان له كمان اطول ..

ــ حسنا يا أماه ..

ونظر الجميع الى ذراعى « روثى » البيضاوين المستديرين الجميلين . وكان « تيد » أجراهم نظرا وهو لا يكف عن الشعور بالعجب والتساؤل منذ راى هذه الفتاة « روثى » وهى تدخل الغرفة مع ابويها ..

اهى نفسها الطفلة الصغيرة التى كان يخجل من اللعب معها وهو طفل ؟ !

ايمكن ان تتحول تلك الطفلة الثقيلة الظل الى هذه الغادةالضاحكة المفعمة بالانوثة ، والتى تبدو كانها زهرة اغتسلت من فورها بانداء الصباح ؟

انها قد تبدو غبية بعض الشيء اذا قورنت بـ « آنيز » .. ولكن الواضح انها ذات مزاج هادىء وطبع لين .. وانه ليذكر قول جده له ذات يوم : « اذا شئت أن تتزوج يا « تيد » ، فتزوج ذات الطبع الهادىء اللين .. لان ذات الطبع الحاد قد تدمر حياة زوجها ! »

وقال « تيد » لابيه : « هل نخبر آل « فوردام » ؟

ــ نعم .. بشرط ان تقول لهم اننى غير موافق ..

وقال المستر « فوردام » وقد ثار فضوله كالمعتاد : « هه ! ... ماذا حدث ؟ .. »

فرد « تيد » قائلا : « لقد قررت ان اعيش فى قرية هندية .. »

فقالت المسز « فوردام » : « طول العمر » ؟ !

ــ لا أستطيع أن أجزم الان ..

وعادت المسز « فوردام » تقول :

ــ ولكن ما أعجب أن تترك أباك .. وهذا البيت الرائع .. وكل

شيء من اجل .. من اجل ماذا ؟..

وقال المستر « فوردام » :

ــ استطيع القول اننا سنراه بيننا فى نهاية العطلة المدرسية ..

وعاد « تيد » يقول : « ربما » ..

واستطرد المستر « فوردام » يقول : ان كثيرا من الشبان يعتقدون أن فى مقدورهم أن يفعلوا شيئا جديدا . وأتذكر أننى كانت لى مثل هذه الاحلام وانا شاب .. ولكننى لم احلم قط بان أعيش فى قرية ، لان الحياة فيها لا تحتمل .. !

وفجاة قال « تيد » : « اننى لا أدرى ماذا سيكون موقفالسلطات الحكومية من فكرتى هذه فى الوقت الحاضر ... »

ثم استطرد قائلا ليجيب على نظرات تساؤلهم :

ــ ان هذه السلطات قد تظن أننى باقامتى بين البؤساء والفقراء انما اتخذ جانب الثورة !

وهنا قال والده :

ــ اطمئن من هذه الناحية ، فاننى سأتفاهم مع الحاكم العام فى هذا الشأن ..

وقالت « روثى » :

ــ اعتقد ان الامر لا يخلو من طرافة .. لقد احببت دائما الفلاحين الهنود ، وهم عادة أوفياء يقدرون الجميل .. وليسوا متكبرين مثل الهنود المتعلمين . لقد كانت معى فى جامعة أوهيو طالبة هندية ابنة أحد الامراء . ورغم انه من أصغر أمراء الهند شأنا ، الا انها كانت تترفع عن الحديث معى وتحتقرنى ..!

ولم يجب أحد على هذا ، الى ان قالت المسز « فوردام » :

ــ ارجو أن تكونى قد صفحت عنها ياعزيزتى ..

ــ لقد تركتها لشأنها ولم أحاول أن أزعجها ..

فقالت الام : « كان ينبغى أن تصلى من أجلها .. »

ــ لم أر مايدعو لهذا ..

وضحك « تيد » وقد شعر بالميل الى « روثى » .. الميل الخالى من الاعجاب او الافتتان .. وقبل ان يقول شيئا ، قال المستر « فوردام » :

— يحسن أن نعود الان الى البيت حتى نترك السيدين يواصلان حديثهما على انفراد ..

وهنا هتفت « روثى » قائلة وقد اتسعت عيناها ، وارهفت اذنيها ..

— اها ؟.. اسمعوا ..

وارهف الجميع آذانهم . واذا هم يسمعون عويل الرياح وهى تتجمع وتهب من بعيد ثم تقترب تدريجيا .. ثم اذا بهم يسمعون صوت انهمار المطر ..

لقد وصلت الامطار الموسمية أخيرا ..

وصاح المستر « فوردام » :

— هلم نجرى الى البيت قبل أن تحاصرنا هنا ..

واندفع الجميع من باب الشرفة الارضية يهرعون .. ووقف « تيد » يراقبهم ، فرأى المستر « فوردام » يندفع متقدما ومن ورائه زوجته ، وقد رفعت ذيل ثوبها لتغطى رأسها .. أما « روثى » فلم تجر على الاطلاق ، وانما سارعت متمهلة .. وقد رفعت وجهها لتتلقى المطر المنهمر ، وبسطت ذراعيها ، بينما اخذت الرياح تعبث بخصلات شعرها حتى فكت عقصته وتركته يسترسل على كتفيها .

انها لم تكن خائفة .. وهذا مازاد من ميل « تيد » اليها ..

***

وقالت « آنيز » فى الرسالة التى ردت بها على رسالة « دافيد ماكارد » والد « تيد » :

« ... اننى اعجب بتيد .. ولكننى فى ذات الوقت ارى أن من المستحيل عليه ان يحقق شيئا بهذه التضحية التى سيقوم بها .. ان كل مجهوداته ستذهب سدى . وصدقنى يادكتور « ماكارد » ... اننى اشعر بالفخر لهذه الثقة التى وضعتها فى ، ولكننى اصارحك باننى لم اتفق مع « تيد » على شىء .. لم نتفاهم على أى شىء .. بل ربما كان العكس صحيحا . اى اننا افترقنا ونحن مختلفان . لقد نشأت كفتاة انجليزية فى الهند .. ولا استطيع الا ان اقدر مسئولياتى كما ينبغى ، وكما يمليها على الواجب . واعتقد انه لا يسعنا الا ان ننتظر حتى يفيق « تيد » من احلامه ، ولكننى فى

الوقت نفسه ارى انه ليس هناك أية ارتباطات خاصة بينى وبينه ... فاذا كتب الى فى هذا الشأن ، فسوف أوضح له وجهة نظرى بكل اخلاص .. »

وشعر « دافيد » بعد قراءة رسالتها أنها فتاة ذات وقار واتزان واحساس عميق بالمسئولية نحو والديها .. شعر انها انموذج الفتاة التى يتمنى ان تعيش فى بيته كزوجة ابن ..

وكتب اليها رسالة اخرى يشكرها ويعرب عن تقديره لوجهة نظرها ، وعن امنيته فى أن يلتقى بها يوما لكى يتبادل معها الحديث بشأن « تيد » .. ثم قال لها انه فى الوقت نفسه يقدر تماما كل ما ستكتبه لـ « تيد » فى شرح وجهة نظرها .. أما من ناحيته هو ، فانه يقدر كل التقدير ماتقوم به الامبراطورية البريطانية من جهود لاعداد الهند للحكم الذاتى ، ولتأخذ مكانها اللائق بين امم العالم المتحضر ، ثم راح يعرب عن أسفه لجحود الشبان المثقفين وزعمائهم الذين من بينهم — لاسفه الشديد — عدد من اصدقائه القدامى ..

ولكنه لم يخبرها بانه شعر بالوحدة والوحشة بعد رحيل ابنه عن البيت . وكان « تيد » قد رحل فعلا بعد ان انتظر يوما او يومين — بعد انهمار الامطار الموسمية — ثم انطلق فى طريقه شمالا الى قرية فاهى . ومن هناك قال فى أول خطاب له انه وجد المنطقة المحيطة بالقرية غارقة بمياه المطر ، ولكن فاهى كانت على شىء من الجفاف النسبى لانها تقوم على تل منخفض منبسط السطح . وقد عثر على بيت صغير خال اشتراه من صاحبه بمبلغ زهيد ، ولم يستطع ان يفعل شيئا فى الايام الاولى الا أن يترك الفلاحين المساكين يأتون اليه ليحملقوا فى وجهه ، وكأنهم لا يصدقون نظراتهم . وقال انه سعيد لانه تعلم لغتهم اذ مكنه ذلك ان يتبادل معهم الحديث ، ثم الفكاهات .. ويبدو أن الفكاهة الكبرى فى نظرهم هى قوله لهم انه جاء اليهم ليتعلم منهم !.. ذلك لان القرية كلها لم تكن أكثر من بضعة بيوت مصنوعة من الطين ، وبضعة أكواخ لعدد من الصناعات اليدوية المختلفة ، منها صناعة النسيج اليدوى ، والفخار ، والسجاد ، وطحن الغلال .. وبدا له الفلاحون وهم على حافة الموت جوعا ، ولكن الآمال بدأت تداعب صدورهم اخيرا عندما انهمرت الامطار الموسمية فى موعدها ..

وكان « تيد » سعيدا حقا .. سعيدا بحريته أخيرا .. سعيدا وهو يعيش يوما بيوم ، فالامطار الموسمية سوف تتوقف فى الوقت المناسب ، وسوف تجف البحيرات التى تكونت بسببها وتغدو حقولا من الارز والشعير والفول .. وقد كتب لابيه يقول انه لن يزور بونا فى وقت قريب ، لانه بدأ يتعلم الشىء الكثير ، ولان الاهالى لم يعودوا يخافونه ..

ولم يحاول أن يكتب لـ « آنيز » الا بعد مرور اشهر عديدة .. بعد أن أخذت الرياح الرطيبة تهب من سفوح جبال هملايا ، وبعد ان استقر به المقام فى بيته المصنوع من الطين ، وبعد ان توضحت معالم حياته اليومية الرتيبة ..

لقد كان ينهض فى الصباح الباكر ، ليقوم بالتدريس مدة ساعتين لكل من يريد أن يتلقى المعرفة على يديه فى قرية فاهى . وبعد أن يعود تلاميذه الى العمل ، يبدأ هو فى أداء واجبه الطبى – وكان ملما بمبادىء الاسعافات والعلاج الاولى – فى بيتـه . وهنـا كان المرضى يأتون اليه من أماكن بعيدة ، فكان يعالج الذين يستطيع معالجتهم ، ويرسل الاخرين الى اقرب مستشفى ، ويتعذب من أجل الذين يعودون الى بيوتهم ليموتوا !

وكان يقضى فترة مابعد الظهيرة فى التوفيق بين المتخاصمين فى القرية ، وتهدئة الخلافات التى تثور بين سكانها .. وهكذا تنقضى فترة الاصيل ، ثم فترة المساء ، فى حديث هادىء وتوجيه طيب . وكان هذا كله يجرى برتابة ، وكانت نتائجه اقل كثيرا مما كان يحلم به .. الا انه أدرك أخيرا أن الحياة قد استقرت به فى القرية ، وان فى مقدوره فى النهاية أن يكتب الى « آنيز » ..

قال لها فى رسالته :

« ان الفرصة لم تسنح لك – او لى من قبل – لكى نعرف هؤلاء المعوزين على حقيقتهم .. ولشد ما اتمنى لو انك كنت معى هنا لتسمعى اقاصيص الاحداث التى تقع كل يوم فى فاهى .. الاقاصيص العجيبة الغريبة ، الحزينة الدامية ، الحلوة البريئة .. اقاصيص القرية الهندية التى تصور الحياة اليومية كلها فى الريف . أؤكد لك أنها اكثر اثارة من أية حياة أخرى عرفناها .. اننى يا حبيبتى

أرى الان الحياة الانسانية بكل مافيها من آلام وامال ، وحرمان وحب ..! »

ولم يكن فى نية « آنيز » ان ترد عليه ، لولا كلمة فى رسالته أثارتها وجعلتها تكتب اليه لتقول له بكل حزم ، انها لا تسمح له بأى حال من الاحوال أن يقول لها « ياحبيبتى » لانها لم تكن فى يوم ما « حبيبته » وفضلا عن ذلك فقد وعدت أباه بالزواج .. أو كما صرحت فى رسالتها قائلة :

« اننى لا أدرى كيف أسوق لك هذا الخبر بأسلوب لا يغضبك .. ولكن لابد ان أصارحك لانك ان لم تعرف الان ، فسوف تعرف بعد حين .. لقد وعدت ان أتزوج والدك ... »

***

ولم تكن ثمة اخبار تصل الى فاهى ، ولا شائعات أو اقاويل تبلغها من العالم الخارج عن محيطها . ولم يكن ابوه قد لمح له بشىء فى رسائله عن هذا الزواج .. ولعله ترك أمر هذه المهمة الدقيقة لـ « آنيز » . ولو انه كان مقيما فى بونا ، لاستطاع ان يعرف شيئا عن هذه الصداقة التى توطدت عن طريق الرسائل المتبادلة بين « آنيز » وابيه . ولكنه لم يكن فى بونا ، فلم ير أو يسمع شيئا ..

والواقع انه كان فى خلال هذه الاشهر سعيدا الى أقصى حدود السعادة .. فنسى فى غمرة سعادته مباهج الحب وآلامه ، ولعله نسى ايضا أن انقطاعه عن الكتابة لـ « آنيز » أتاح الفرصة لها لكى تتبادل الرسائل مع ابيه عنه . وقد فهم من رسالتها الاخيرة انه هو السبب المباشر فى هذه الصداقة التى تمت بالمراسلة بين « آنيز » وابيه .. فهو الذى جمع بينهما ، ودفع بهما الى الزواج فى النهاية !

وقد كتب اليه ابوه بعد ذلك يقول تبريرا لما حدث :

« .. اننى لم أفكر يوما فى أن أتزوج مرة أخرى بعد أمك ... ولكن شعورى العميق بالعزلة بعد رحيلك دفعنى الى توطيد الصداقة بالمراسلة مع « آنيز » .. »

ولم يبرح « تيد » قرية فاهى ليحضر حفلة زفاف أبيه على « آنيز » فى بومباى ، ولا ليودعهما وهما يسافران الى الصين ، ومنها

الى اليابان .. ثم الى نيويورك ..

***

وصل « دافيد » وزوجته الشابة الى نيويورك فى يوم مشرق جميل ، بدت فيه المدينة كأروع ماتكون .. وكانت الرياح تهب من البحر ، والسماء تبدو صافية . وكان « دافيد » يشعر بسعادة غامرة بعد أن ظن يوما ان السعادة لن تعرف الطريق الى قلبه بعد وفاة زوجته . ان هذه الفتاة الانجليزية الحسناء التى استطاع ان يظفر بها زوجة وابنة فى وقت واحد ، قد عرفت كيف تملأ قلبه بالهناء ، وبالزهو ، وبالشعور بانه لم يتجاوز بعد شباب الحياة رغم بلوغه الخمسين من عمره .. الا ان حبه لها كان يختلف عن حبه لـ « أوليفيا » .. كان حبا خاليا من تلك العاطفة الجنسية المشبوبة التى كانت « اوليفيا » تثيرها .. وكان هو — فى شبابه — يستمتع بها . ومن حسن حظه انه لاحظ أن « آنيز » من النوع الهادىء الذى يضع الجانب الجنسى فى المرتبة الثانية او الثالثة فى الحياة الزوجية !

وكان يشعر — فى أول الامر — انه اخطأ فى حق ابنه « تيد » ، وانه حرمه من حبه الوحيد . ولكن « آنيز » اكدت له انها لم تحب « تيد » الا كصديق ، وانها حاولت كثيرا أن تقنع نفسها بحبه ، ولكنها لم تستطع .. وأن زواجها به ماكان ليتم يوما حتى لو اراد أن يعيش معها فى انجلترا او فى نيويورك ..

ووجد « دافيد » عزاءه اخيرا فى أن « تيد » لن يهتم كثيرا بما حدث ، طالما انه تنازل عن كل شىء لكى يعيش فى قرية هندية ليحقق الهدف الانسانى الذى يؤمن به .. !

ولما رأت « آنيز » البيت الكبير لاسرة « ماكارد » الذى يقع فى قلب مدينة نيويورك وبين ناطحات سحابها ، هتفت فى ابتهاج وهى تتجول من قاعة الى اخرى : « ياللروعة .. انه يشبه الى حد كبير قصرا من قصور انجلترا التاريخية »

وفى احدى قاعات الاستقبال الفاخرة ، وعلى متكأ من الحرير الفاخر ، عانق « دافيد » زوجته وقبلها بحرارة وهو يقول :

— انى ماكنت اظن ان الحياة لا تزال تدخر لى كل هذه السعادة ياحبيبتى ..

وبعد قليل .. قالت له بلطف :

— الآن .. اذهب الى أبيك لتراه ، فان الممرضة تقول انه فى ساعاته الاخيرة ..

وكان أبوه العجوز راقدا فى فراشه الضخم ، ساكنا فاقد الوعى ، لايستطيع أن يتعرف على احد .. حتى على ابنه « دافيد » !

ووقف « دافيد » ينظر — بقلب حزين — الى الرجل المحتضر الذى كان أسمه فى يوم ما يزلزل الاسواق المالية فى العالم كله .. وقالت له الممرضة :

— احسنت بالحضور يادكتور « ماكارد » .. فان ساعاته فى الحياة اصبحت معدودة

— هل طلب أن يرانى ؟

— انه لم يطلب رؤية احد لانه مشغول بدفع الموت عنه !

— اذن استدعينى اذا لزم الامر .. ولن اغادر البيت لهذا السبب ..

— حسنا يادكتور « ماكارد »

وعاد على أطراف أصابعه الى حيث كانت « آنيز » فى انتظاره باحدى قاعات الاستقبال .. وهناك قال لها :

— اننى لا أريد أن ترى ابى وهو فى ساعاته الاخيرة حتى لا ..

فوضعت الكتاب ، الذى كانت تقرأ فيه ، على المنضدة ... وقالت :

— شكرا لك ياعزيزى .. ان هذا شعور جميل منك ..

وفى اليوم التالى ، فوجئت الممرضة بالعجوز « ماكارد » ينتصب جالسا ، ويحاول أن يهبط من الفراش .. ولكنها أسرعت اليه ، وأرقدته مرة أخرى وهى تقول :

— لا .. لا .. يامستر « ماكارد » .. انك تؤذى نفسك بهذا المجهود ..

وأسرع « دافيد ماكارد » حين سمع الجلبة فى غرفة أبيه .. فلما دخلها قال متسائلا : « ماذا حدث ؟! »

— لقد استرد وعيه فجاة ، وأراد ان يغادر الفراش ..

وكان العجوز فى تلك اللحظة يتلفت حوله .. ثم يقول ولحيته

الكبيرة تهتز : « أين أوليفيا ؟ »

فقال له « دافيد » بهدوء : « لقد ماتت « أوليفيا » يا أبى منذ عهد بعيد »

ـ اهى ماتت ايضا ؟

ثم راح يردد اسم زوجته « ليلا » قائلا :

ـ ليلا .. ليلا .. اننى آت اليك ياعزيزتى ..

ثم مال برأسه جانبا ، ولفظ أنفاسه الاخيرة ..

***

وقالت « آنيز » بعد أن تمت اجراءات الدفن :

ـ اننى أتمنى لو استطعت ان أعيش هنا دائما يا « دافيد » ..

فقال لها دافيد :

ـ اذن سنفعل هذا يوما .. لان لدى بعض الاعمال التى ينبغى أن انجزها قبل أن أستقر هنا ..

فأسرعت تقول :

ـ طبعا .. طبعا .. لقد اعربت فقط عن امنية من امانى .. ولكن أعمالك أهم جدا ، من امانى فتاة مدللة مثلى .. ولست اشك فى انى ساكون سعيدة معك فى الهند او هنا .. !

وطوقها بذراعيه فى حنان وقال :

ـ ان سعادتك هى من أهم اهدافى فى الحياة الان ..

وكان « دافيد » فى الواقع سعيدا رغم اجماع الاطباء بان زوجته « آنيز » عاقر تماما ، ولا ينتظر بحال أن تنجب له ابناء .. والواقع أن هذا القرار وضع حدا لشعوره بالقلق ، فقد كان اشد ما يخشاه أن تنجب له « آنيز » عددا من الابناء والبنات وهو فى هذه السن ، فينشغل بهم عن اعماله الكثيرة التى تنتظر الانجاز فى الهند ..

ولم تغضب هى أو تحزن حين علمت هذه الحقيقة .. وهكذا اثبتت مرة أخرى أنها فتاة واقعية رزينة ، لا تحزن أو تغضب لحرمانها من شيء شاءت الاقدار أن تحرمها منه ..

وهكذا أصبح « تيد » الوارث الوحيد للملايين « آل ماكارد » بعد أبيه .. فهل سيأتى اليوم الذى يتزوج فيه ، وينجب ورثة لهذه الملايين ؟

الفصل التاسع

زوجة بالإكراه

وفى قرية فاهى ، أخذت الايام تمر رتيبة على « تيد » .. وكلما مرت ازداد شعورا بالاستقرار ، لا سيما بعد أن لمس الاثر الواضح لجهوده وخدماته فى القرية منذ أن اقام فيها .. لقد علم الفلاحين كيف يحفرون المصارف التى تمتص المياه الزائدة فى موسم الامطار .

واستدعى من بومباى اخصائيا فى حفر الابار الارتوازية ، فحفر فى القرية بضعة آبار ، وعلم بعض القرويين كيفية حفرها ، وهكذا قل اعتماد المزارعين على الامطار وحدها ، وازدهرت الزراعة ، وارتفع مستوى معيشة الأهالى .. وتسامع سكان القرى المجاورة بما حدث فى قرية فاهى ، فاخذوا يتوافدون ليروا ويتعلموا . وزاره « داريا » ذات يوم حيث أقيم احتفال ضخم ، وقف فيه « داريا » يحدث السكان بآمال زعماء البلاد فى الاستقلال الكامل ، ويشرح لهم معنى الوطنية والقومية ، ويؤكد لهم أن الوطنية ليست كلاما وانما هى عمل وانتاج وجهد متواصل ..

وبعد رحيل « داريا » بيوم أو يومين ، تلقى « تيد » خطابا حمله احد السعاة الذين يوزعون الرسائل بين القرى جريا على الاقدام .

وكان المظروف مربع الشكل ، والورق من النوع الاحمر الرخيص ، يحمل اسم « آل فوردام » فى بلدة بونا . ولم يكن العنوان والاسم مكتوبين بخط المستر « فوردام » ، ولم يكن من المعقول أيضا أن تكتب له المسز « فوردام » رسالة على ورق احمر . فلما فض المظروف وجد رسالة من ورقتين مطويتين مليئتين بعبارات مكتوبة بخط فتاة وبمداد احمر اللون . وكان الاسم المذيلة به الرسالة هو اسم « روثى فوردام »

وشعر « تيد » بالدهشة والارتباك ، وهو يقرأ قولها له انها كتبت اليه دون أن تخبر والديها ، وأن الحافز لكتابتها هو شعورها بالوحدة والعزلة وحرمانها من صديقات أو رفيقات فى مثل سنها ، وأنها وقد بلغت التاسعة عشرة من عمرها ممنوعة — بأمر والديها — من مصادقة أى شاب انجليزى فى البلدة خشية أن تلوك الالسنة سيرتها !

وكان الواضح ان « روثى » تريد ان تكتب او ان تراسل أى شاب .. ومن ثم وقع اختيارها على « تيد » دون أن تدرى على وجه التحديد لماذا اختارته . ولكنه نداء الشباب ، وحرارة العاطفة فى مثل هذه السن !

ولم يكن هو قد كتب الى « آنيز » غير خطاب واحد ، اعرب فيه عن تهنئته لها بزواجها من أبيه . ولكنه فى قرارة نفسه كان قد قرر الا يعود الى بونا طالما هى مقيمة فيها . وكان ابوه قد اخبره انه عاد الى بونا مع عروسه بعد ان امضى ثلاثة اشهر فى نيويورك ، وانه عين مديرا مساعدا له ليعاونه على ادارة المؤسسة الامريكية الضخمة ، ثم ليتولى ادارتها نهائيا بعد ان يعود هو الى نيويورك للاقامة فيها بصفة دائمة

وحاول « تيد » جاهدا أن ينتزع ذكرى حبه السريع ل « آنيز » بعد ان اصبحت زوجة لأبيه . ولكن قراءته او سماعه لاسمها كان يثير فى قلبه المنا حادا ! أما «روثى» فقد كتبت اليه فى رسالتها تقول : « .. لشد ما احسدك على حياتك التى تحياها فى مكانك البعيد المنعزل عن شرور الدنيا .. اننى اتمنى لو استطعت ان اعيش فى احدى القرى ايضا . فانا أحب الطعام الهندى ، واحب الاطفال الهنود الصغار . وأبذل جهدى فى تعليم امهاتهم وسائل التربية الحديثة . ولهذا فانى أقرأ الكثير من الكتب الخاصة بتربية الاطفال »

وهكذا بدات — بالمراسلة — صداقة وطيدة بينه وبين « روثى » ، وقد ارسلت اليه ذات مرة صورة لها تمثلها وهى واقفة فى ضوء الشمس وقد بدا ذراعاها عاريين ، وشعرها متطايرا فى الهواء ، ولكنها اخبرته انها قصرت شعرها بسبب حرارة الجو ، وان امها انبتها بشدة لهذا السبب . ثم قالت له فى احدى الرسائل : « .. ان أمى تحاول دائما أن تقرأ رسائلك الى .. ولكننى لا أتيح لها هذه

الفرصة . وقد عرفت أن الرسائل التى أتلقاها ، آتية منك .. لانه ليس هناك من يراسلنى سوى زميلة لى فى أوهيو . ولكننى حريصة على الا ادعها تقرأ هذه الرسائل لان من حقى ان يكون لى جانب من حياتى لا يطلع عليه أحد .. »

وقد أخبرته انها تقوم بالتدريس فى المدرسة الابتدائية .. وانها لا تحب التدريس للبنات اليافعات ، وتتمنى أن تستمر فى تدريس الاطفال الذين تحبهم ..

ثم سألته فى احدى رسائلها : « الا تفكر فى أن تأتى لتقضى معنا أعياد راس السنة فى بونا ؟ »

فرد عليها فى رسالة يقول : « لا .. لقد اصبحت فاهى هى موطنى ومستقر حياتى .. »

نعم .. اصبحت فاهى موطنه .. موطن روحه وجسمه . لقد كان يعرف ان اباه يعتقد انه سوف يعود يوما الى بونا ، ولكنه لن يعود .. لن يعود الى بونا أو الى أى مكان آخر فى العالم . حسبه ان يعيش هنا فى قلب ملايين الهنود .. ولماذا الهنود فقط .. ؟ فى قلب ملايين البشر فى انحاء العالم كله . ان هؤلاء القرويين يرمزون للغالبية العظمى من بنى الانسان فى مختلف انحاء العالم .. وانه — فى اعماق نفسه — يؤمن بأنه لا يجوز لانسان ان ينعم بمباهج الحياة الحقيقة حتى يشبع كل جائع منهم ، وحتى يشفى كل مريض ، وحتى يتعلم كل جاهل ..

وبدأ — مع مرور الايام والشهور — يشعر بالراحة والبهجة كلما قرأ رسالة « روثى » او كلما كتب رسالة مطولة اليها . وكان يستمتع بهذه الكتابة لانها لم تكن تطالبه بشىء معين ، أو ترهقه بالكتابة عن أشياء خاصة ، وانما تقول له فى رسائلها انها تجد متعة فى كل ما يكتبه لها ، ولا سيما براعته فى ذكر تفاصيل بعض الاحداث والطرائف . وكان « داريا » قد حدثه عن استمتاعه بزمالة الحشرات له فى غرفته بالسجن ، وانه كثيرا ما كان يجد فى هذه الحشرات لونا من الترفيه الذى يخفف عنه قسوة الشعور بالوحدة . وقد ادرك « تيد » هذه الحقيقة حين بدأ يألف السحالى التى استقرت فى شقوق جدران بيته ، وحين عرف انها صديقات لطيفات تلتهم الكثير

من الحشرات الصغيرة المؤذية او المزعجة ..

وقد حدث « روثى » فى رسالة عن السحالى ، وعن العقارب ، والعناكب ، والحشرات السامة التى تكثر فى كل مكان بالقرية ، كثرة النمور فى الغابة . ولكن الحيوانات الطريفة حقا هى القردة والسناسيس التى تتسلل الى القرية بين الحين والآخر لتسرق بعض الطعام . ثم أخذ فى رسالته التالية يحدثها عن السناسة الصغيرة التى سقطت من فوق الشجرة فانكسرت ساقها .. ولما عالجها وشفيت ، تعلقت به الى حد انها اصبحت ترفض الطعام او الشراب الا اذا قدمهما هو اليها بنفسه !

وقال لها فى رسالة أخرى : « وحتى فى المساء — وفى الليل الطويل — لا يرفرف السكون التام على القرية ·· فهناك اصوات الحيوانات فى الغابة ·· وهناك عويل الاطفال المرضى ·· ولكننا حين نفترق — فى نهاية اليوم — تكون السكينة قد ملأت أرواحنا جميعا »

واستمرت هذه الرسائل متبادلة بينهما نحو عام . واخيرا وردت الرسالة التى كان يتوقع ان يتسلمها يوما . وقد ادرك فحواها بمجرد ان قرأ سطورها الاولى : « .. دعنى آتى الى القرية لأعيش معك .. اسمح لى أن اكون زوجة لك . اننى لن اطالبك بشيء ، بل ولن أطلب منك ان تحبنى ، ويكفى انى احبك ! »

***

ما هو الزواج ؟.. انه لا يعرف ما هو على وجه التحديد .. انه يشعر برغبات الجسد تفور بين الحين والآخر ولكنه كان دائما ينجح فى كبتها عن طريق العبادة والصلاة والاستغراق فى العمل .. ولكنه كان يقضى بعض الليالى ساهرا ، مؤرقا من فرط الشعور بالرغبة الجنسية المستعرة . وفى مثل هذه الليالى كان ينهض من فراشه ، ويضىء المصباح ، ويقرأ . وهنا كان الاهالى يتسللون الى حديقة البيت الصغيرة ليطمئنوا عليه خشية ان يكون مريضا ، أو لعل السبب انهم مرضى أو مؤرقين مثله

ولم تكن الهند — كما عرف منذ أمد بعيد — بالمكان الذى يستطيع الانسان أن ينام فيه ساعات طويلة فى الليل .. لأن الحرارة الشديدة ، ودبيب الحشرات ، وعويل الاطفال المرضى أو الجائعين ، تؤرق النائم

الا اذا كان مجهدا جدا

وكان هو — فى فاهى — موضع اهتمام الجميع ، وكان الجميع يعتمدون عليه فى كل شيء تقريبا ·· فلماذا يكون رأيهم فيه اذا هو تزوج ؟ .. انه لا يدرى ، وان احدا لم يحاول ان يفاتحه فى هذا الامر ، لأنهم كانوا ينظرون اليه نظرتهم الى قديس !

ولم يكن هو بدوره يستطيع أن يتصور وجود أية زوجة بيضاء فى فاهى ، الا « روثى » .. ولكنه لم يكن يحبها هذا الحب الذى يجعله يتمنى الزواج منها . انه يميل اليها حقا ، ولا يجد اى سبب يدعوه للنفور منها .. على أن الميل او عدم النفور شيء ، والحب شيء آخر . ومع ذلك فهو لا يريد ان يحب « روثى » أو غيرها ، لانه يعلم ان الحب سوف يشغل جانبا كبيرا من تفكيره وعواطفه التى كرسها لرسالته الانسانية فى هذه القرية

واستبدت به الحيرة ، فلم يعرف كيف يرد على رسالة « روثى » ! هل يعتذر اليها ويجرح كبرياءها الانثوى ، ويحرم نفسه حتى من رسائلها التى تعتبر كالقطرات الندية فى حياته الجافة .. أم يلف ويدور فى الرد ، وينتهى الى القول بأن الوقت لم يحن لكى يتزوج !

وظل فى حيرته حتى قرأ فى العهد القديم انشودة الملك سليمان لاحدى زوجاته الحسان :

« تعالى ، ايتها الحبيبة ، لنمضى الى الحقول ..
« ولنسكن فى القرى .. »

وفى ديوان الحكيم الهندى « سانهارا كاريا » قرأ ما يلى :

« لأنه عندما يصبح الواحد اثنين ..
« وعندما يصبح الاثنان واحدا ..
« فان البحث عن الحقيقة لا يضيع سدى .. »

وراح يبحث عن الحقيقة .. عن البرهان الذى يطمئن اليه قلبه .. وقد وجد هذا البرهان اخيرا فى هذه الحقيقة الواضحة الصريحة ·· ان رغبات الجسد تزداد عنفا يوما بعد يوم ·· وهو ليس بقديس ، وليس بقادر على ان يكبت هذه الرغبات بصفة دائمة .. وان حياته فى هذه القرية تستلزم وجود زوجة بجانبه ، وليس هناك زوجة بيضاء تقبل الحياة معه الا اذا كانت « روثى »

وعلى هذا ، ارسل اليها الرد التالى : « اذا كنت تقبلننى

يا « روثى » كما أنا فهلم نتزوج فى اقرب فرصة .. »

***

وقالت « روثى » لامها ذات صباح : « اننى و « تيد » قد نتزوج فى اية لحظة »

ولكن أمها قالت لهـا بحزم : « اعتقد انه لا ينبغى أن تتزوجى « تيد » قبل ان يعود والده من رحلته الاخيرة الى بومباى »

فردت « روثى » بحرارة قائلة : « ولماذا ننتظر ؟.. اننى واثقة بأن الدكتور « ماكارد » لا يحب أن يرى « تيد » زوجا لى ! »

وهنا قالت الام بجزع : « فى هذه الحالة ينبغى ان ننتظر عودته »

ـ لماذا ؟ .. الا يحسن ان ننتهى من هذا الامر قبل حضوره حتى لا نترك له الفرصة للرفض ؟ !

ولما عرض الامر على الوالد ـ المستر « فوردام » ـ وقف بجانب ابنته ، لا لأنه كان يخشى غضب الدكتور « ماكارد » أو رفضه ، وانما لاستنكاره ان تكون ابنته غير جديرة بالزواج من اى شاب ، حتى ولو كان من عائلة « ماكارد » !

وقد قال فى هذا الشأن : « اننا اناس عاديون .. ولكننا مع ذلك لا نقل شأنا عن أية اسرة ، ولو كانت أسرة « ماكارد » » !

وهكذا تقرر الامر ، فكتبت « روثى » الى « تيد » تقول له انها على استعداد لأن تتزوجه ـ اذا شاء ـ فى اى وقت ، وانها تفضل ان تقضى معه عيد الميلاد فى فاهى ـ كزوجة مطيعة له ـ وأن حفلة الزواج ستكون صغيرة لانها لن تدعو الا عددا قليلا من المعارف والاصدقاء ، البيض والهنود .. ولكن اذا اراد ان ينتظر عودة والده وزوجته من بومباى ـ بعد شهر ـ فانها على استعداد لان تنتظر ايضا وان كانت تفضل أن يتم الزواج فى أسرع وقت !

استلم « تيد » هذه الرسالة بعد يوم عانى فيه من الجهد الشىء الكثير . ومن ثم أخذت الشكوك تناوشه ، وقد احس فجأة انه تسرع بالموافقة على الزواج . ولكن الزمام كان افلت من يده ، ولم يعد هناك اى مبرر لتراجعه . على انه لم يلبث ان راح يفكر بهدوء وسكينة ، ثم قرر اخيرا انه لم يخطىء ، وان الزواج القائم على الحب المتبادل قد يصلح فى اى بلد آخر .. اما فى الهند ، وفى هذه القرية

بالذات ، فليس هناك غير زوجة واحدة تصلح له .. وهى « روثى » .. الفتاة الحلوة ، البريئة ذات المزاج المعتدل ، والطبيعة الهادئة ..

ظلت هذه الأفكار تراوده بضع ساعات فى سكون الليل ، بينما كانت حرارة الجو تجثم على صدره كأنها وحش ملتهب . وأخيرا نام وهو مطمئن الى أن « روثى » هى الزوجة التى اختارها له القدر ، شاء او لم يشأ !

***

وأدرك ـ أثناء حفلة عقد الزواج بالكنيسة ـ ان القدر لم يقس عليه حين اختار له « روثى » زوجة .. بل لعله احسن اليه ـ من حيث لا يدرى ـ احسانا يرى انه غير جدير به ، فقد كانت الفتاة تبدو ـ وهى واقفة بجانبه امام المحراب ـ فى ثوب الزفاف ، انموذجا رائعا للجمال العذب المثير .. وعبثا حاول ان يجد فيها عيبا ، وهو ينظر الى شعرها الذهبى الناعم ، والى وجهها المستدير المشرب بالحمرة ، والى شفتيها الصغيرتين الممتلئتين الحمراوين والى جسمها اللدن الممتلىء المضىء من فرط صفاء البشرة ..

وكان جميع المدعوين الى عقد القران من سكان بونا الهنود والبيض الذين عرفهم فى طفولته .. وقد شعر من ثم بالرضى والغبطة وهو يستعيد فى لحظات خاطفة أيام الطفولة العذبة ، حتى أفاق من ذكرياته على صوت المستر « فوردام » الذى كان يقوم بمراسم الزواج ، وهو يقول :

ـ « تيودور ماكارد » .. هل تقبل هذه العذراء زوجة لك ؟

وقال « تيد » فى مرح وتفاؤل واستبشار : « نعم »

وعاد الرجل يقول لابنته هذه المرة : « وأنت يا « روثى » هل تقبلين هذا الرجل زوجا لك ؟ »

وسرعان ماردت « روثى » قائلة : « نعم يا ابى .. »

وتمت مراسم الزواج ، وخرج الجميع من الكنيسة الى المركبة التى كانت فى انتظار العروسين .. وودعت « روثى » والدها وصديقاتها ، وصافح « تيد » المدعوين وتقبل تهانيهم ، ثم استدارت « روثى » اليه قائلة : « اننى تحت امرك الان يا تيد »

وركب الاثنان المركبة التى انطلقت بهما فى الطريق الى محطة السكة الحديدية . ووقف المستر والمسز « فوردام » يشيعانها وقد انحدرت الدموع من عيونهما فى صمت ..

***

وفيما كان القطار ينطلق نحو محطة السكة الحديدية التى تتبعها قرية فاهى ، قال « تيد » لزوجته بعد أن تناولا طعام الغداء :

ـ « روثى » .. اننى اريد ان اقول لك شيئا ..

فقالت « روثى » وهى تفتح عينيها وتتثاءب :

ـ قل ما تشاء .. اننى اشعر بالخجل لانى نمت . ولكنى معتادة على النوم بعد الظهر كل يوم ..

وكانا جالسين فى مقصورة خاصة بالدرجة الاولى ، ومن ثم قال « تيد » وهو مطمئن الى أن أحدا لن يسمعهما :

ـ اننا لم نجد الوقت الكافى لان نتبادل الحديث عن بعض التفاصيل ولكننى اعتقد ان لدينا الان الوقت الكافى لان يقول كل منا للاخر ما يريد ..

وكان فى قرارة نفسه قد قرر الا يتعجل فى استعمال حقه كزوج .. بل انه كان يرجو الا يقترب منها الا عندما يجد نفسه عاجزا تماما عن كبت جماح رغباته البدنية . وبهذا وحده يشعر بانه لم يتخل عن واجباته ، ولم يخن رسالته الانسانية التى وقف عليها حياته !

أما هى ، فقد اخطأت تماما الهدف من تردده فى الحديث ، فقالت :

ـ أخبرنى بكل ما تريد .. لا داعى للحرج ، فاننى اعرف كل شى ، واعتقد أنه لا توجد فتاة تنشأ فى الهند ثم تجهل كل أسرار الحياة الزوجية ..

وضحكت فجاة وقالت :

ـ هل تعرف اننى كنت محبوبة جدا من السيدات الهنديات المحجبات فى البيوت والقصور ، وأننى كنت من ثم موضع أسرارهن .. ولهذا عرفت من أسرار الحياة الزوجية ما تتجمد له دماء أية فتاة فى أمريكا ؟ !

وأعجبته صراحتها ، فتنهد فى ارتياح وقال :

ـ لسوف أصارحك بما يدور فى نفسى .. ومع ذلك أحب أن تفهمى

فى الوقت ذاته ، لماذا اتخذت هذا القرار ..

فحملقت فيه بعينيها الواسعتين وقالت : « قرار ؟! »

فقال وهو يحاول ان يتغلب على خجله :

ـ اننى كما اعتقد شاب طبيعى من .. من الناحية ..

ـ اننى افهم ماذا تقصد ..

ـ شكرا .. اننى أفضل أن .. أنتظر حتى .. حتى تمتزج الرغبة الجسدية ، بالسمو الروحى .. والواقع اننى لا اعرف كيف أعبر عن افكارى ، ولكننى أستطيع أن أقول اننا لا ينبغى أن نترك الرغبات الجسدية وحدها تسيطر علينا ..

ففكرت « روثى » برهة ، ثم قالت :

ـ ولكننى لا أشعر ـ فى هذه اللحظة ـ الا برغبة واحدة .. وهى رغبة الزوجة فى زوجها .. ومادمنا زوجين شرعيين ، فانى أعتقد انه لا ضرر فى مثل هذه الرغبة ، ولا خطيئة .. بل ان الله يباركها ...

فقال متلعثما : « ولكن .. الا يحسن أن ننتظر حتى يسيطر الجانب الروحى على الجانب المادى فى جسدينا ؟! »

نهزت كتفيها وقالت : « لا بأس من الانتظار اذا شئت ، ولكننى أرجو الا يطول امره ، لاننى أريد أن اكون اما فى أسرع وقت يا «تيد» .. اننى اتمنى ان يكون لى عشرة ابناء وبنات ! »

وحملق فى وجهها برهة ، وهو يعجب كيف نسى هذه الحقيقة . ويبدو ان حياته التى عاشها بدون ام جعلته يجهل معنى الامومة ؟ ولا يذكر فقط الا نفسه !

اما « روثى » فانها لم تكن تفكر فى نفسها ، وانما فى اليوم الذى تصبح فيها اما لاول طفل . اذن فقد عرف اخيرا معنى الزواج .. عرف هدف الزواج .. عرف لماذا يتزوج الناس . وابتسم ساخرا من نفسه حين اراد ان يجعل من هذه المسالة البسيطة ، شيئا معقدا بين الروح والجسد !

وضحك « تيد » فجاة .. ان « روثى » على حق ، وهو على خطا ، وانه من ثم لايرى أى سبب يبرر حرمانها من ان تغدو اما فى اقرب وقت ممكن .. وقالت له « روثى » : « لماذا تضحك ؟ »

– تعالى واجلسى بجانبى ..

وانتقلت الى جانبه .. وشكر الله فى نفسه لوجودهما فى مقصورة خاصة بهما ، مغلقة الباب من الداخل ..

ونظر الى وجهها .. ثم الى صدرها .. ثم عاد ورفع عينيه الى عينيها ، فرأى فيهما النداء الحار .. الصامت ..

وقالت له : « هل تعرف انك لم تقبلنى حتى الان ! »

فابتسم فى رفق وقال : « نعم .. اعرف »

ثم اخذها بين ذراعيه ..

الفصل العاشر

الحب المحرم

قالت روثى : « ليفى .. اننى لا استطيع بأى حال ان اخبر والدك ! »

ونظرت « روثى » الى الفتاة الجميلة الرشيقة القوام الذهبية الشعر ، التى كانت اول ابنة انجبتها من « تيد » ، ثم انجبت بعدها ابنة اخرى وثلاثة صبيان . ورأت فى تلك اللحظات انه كان ينبغى عليها وعلى زوجها « تيد » أن يرسلا ابنتهما الكبرى « ليفى » هذه الى المدرسة الثانوية بأوهيو ، بأمريكا ، منذ سنوات ، الا أنهما تركاها تبقى معهما ومع أختها الصغرى « ساره » ، بينما ارسلوا الاولاد الثلاثة الى امريكا ليتعلموا فى مدرسة داخلية . وكانت « ليفى » قد توسلت اليهما ان تبقى لانها لا تعرف احدا فى امريكا ..

ولما قالت هذا لابيها رد عليها قائلا :

– انك هناك لن تلبثى حتى تتعرفى بأصدقاء كثيرين ..

وهنا ردت عليه قائلة :

– ولكن اصدقائى هنا جاهزون يا أبى !

وعادت « روثى » ترى – وهى تنظر الى ابنتها « ليفى » – أنه كان ينبغى ارسال هذه الابنة الكبرى الى امريكا ، لان سن العاشرة هى السن التى يمكن فيها السيطرة على الطفل او الطفلة .. أما « ليفى » فقد بلغت عندئذ السادسة عشرة . وكانا قد ارسلاها فى العام الماضى الى مدرسة داخلية انجليزية فى بومباى .. وهاهى ذى قد عادت مرة اخرى الى فاهى لتقضى العطلة المدرسية الطويلة ..

وفى خلال العام الاخير ، بدا لهما انها تغيرت بشكل ملحوظ ، او لعلهما لم يلحظا – من قبل – هـذا التغيير الكبير الذى يبدو على الفتيات المراهقات بسرعة مذهلة فى خلال عام واحد . ولكن الاهم من هذا هو ان الفتيات عادة ينضجن بسرعة فى الاجواء الحارة . وهكذا تحولت « ليفى » فى هذا العام الاخير الى امراة شابة مكتملة الانوثة ، بارزة الصدر ، نحيلة الخصر ، او كما يقول الشاعر « هيفاء مقبلة ، عجزاء مدبرة ! »

وردت « ليفى » على امها قائلة : « اننى لست خائفة من ابى »

وكانت « ليفى » كما بدت عندئذ فتاة هادئة ، ولـكن هدوءها كان يخفى ذلك الصراع الهائل الدائر فى اعماق نفسها بين انوثتها والجو المحيط بها . وكانت قد شبت تدين بنظرية امها فى ان الناس جميعا سواء ، لا فرق بين هندى وامريكى ، او صينى وانجليزى . وكانت امها تؤمن بهذه النظرية بدافع من البساطة ، وهربا من الجدل والمناقشات ، وكان ابوها يؤمن بهذه النظرية ايضا .. ولكن الجانب الدينى كان هو الحافز له على هذا الايمان ، ولهذا كان حريصا دائما على ان يؤكد للهنود ان ديانته لا تعترف بالفوارق العنصرية .. ومعنى هذا ان اباها كان يؤمن بالمساواة بين الناس بدافع الحرص الدينى ، ولهذا كانت « ليفى » ترى ان ايمان امها هو الاقوى لانه نابع من الاعماق الطبيعية للنفس البشرية

ولهذا ايضا كانت « ليفى » ترى ان فى مقدورها الاعتماد على امها لتقف بجانبها فى محنتها الغرامية .. ولكن ها هى ذى أمها ايضا تخذلها ، لانها – اى الام – تشعر فى اعماق نفسها بالفزع مما حدث .. لقد أحبت ابنتها الحبيبة الشاب الهندى « جاتان » .. و « ليفى » لا تدرى كيف حدث هذا ، بل ولا تجد له تفسيرا .. انها تعرف « جاتان » منذ ثلاثة اعوام على الاقل ، ولم يخطر ببالها ان تحبه يوم رأته أول مرة . لقد جاء من بونا بعد ان نال ارقى الشهادات فى الطب والجراحة من جامعة « ماكارد » . وكان ابوها « تيد » قد دعاه للاقامة فى فاهى ، للاشراف على عيادة طبية ومستشفى محلى صغير . وكانت قد سمعت اباها يمتدحه ويعلن انه شاب يمكن الاعتماد عليه .. شاب يمكن ان يحل محله يوما فى الاشراف على

الوحدة الاجتماعية الضخمة التى اسسها « تيد » فى خلال السبعة عشر عاما التى عاشها فى فاهى .. وقد كان لهذه الوحدة الاجتماعية ، وما أثمرته من رفع مستوى سكان فاهى وماحولها ، اثره الضخم فى المنطقة كلها ، بل فى معظم انحاء الهند منذ ان نالت استقلالها الذاتى ، وقد بلغ من قوة هذا الاثر ان الحكومة الهندية الجديدة بدات تناقش مشروعا ضخما لانشاء مثل هذه الوحدات المركزية فى جميع انحاء البلاد .. هكذا بلغ الاثر الكبير الذى تركه ابوها فى بلاد ضخمة مثل الهند . والواقع ان فاهى اصبحت قرية نموذجية جميلة رائعة .. وكانت « ليفى » لا تمل سماع الناس وهم يقارنون بين قرية فاهى كما كانت قبل اقامة ابيها ، وبينها الان .. وانها لتحبها من صميم قلبها .. ولكن حبها لهذه القرية شىء ، ووقوعها هى فى حب شاب هندى شىء آخر !

ولكن هذا – على اية حال – ماحدث .. فعندما عادت من المدرسة منذ شهر لتقضى عطلة الصيف الطويلة ، اذ بها تقع فى غرام « جاتان » منذ اليوم الاول . حقا انها راته من قبل مرات عديدة .. مئات المرات .. ولكن رؤيتها له هذه المرة كانت مختلفة ، وهى لا تدرى لماذا . فقد اعتادت أن تذهب – عند عودتها الى القرية لقضاء العطلة – الى اصدقائها وصديقاتها لتحييهم . وهكذا اسرعت تعدو الى عيادة « جاتان » ذات صباح مشرق لتحيى الممرضتين الهنديتين ، وتحيى « جاتان » ايضا بطبيعة الحال . ووقفت متسمرة فى مكانها بمدخل العيادة تنظر اليه – وكان بمفرده – وهو يرتدى معطف العمل الابيض . ونظر هو اليها ، وكانما يرى امامه ملاكا هبط عليه من السماء – او هذا ماشعرت به على الاقل – لانها لم تر احدا من قبل ينظر اليها وفى عينيه كل هذه الفرحة والتقديس والحب

واحست فى تلك اللحظة بالدماء تجرى حارة فى جميع اعضاء جسمها ..

وقال لها بحرارة :

– « ليفى » .. لقد كبرت فجاة .. فما اروع جمالك ؟

وتقدم اليها ، واخذ يديها بين يديه .. ونظر فى وجهها طويلا بحب وحنان ، بينما قالت هى فى تلعثم : « اننى كما انا »

وترك يديها فجأة حين سمع وقع اقدام الممرضتين .. وانتهت تلك اللحظة الساحرة ، ولكنها تركت اثرها الخـــالد فى قلبيهما .

واخذت تجمع بينهما — على انفراد فى معظم الاحيـــان — كل يوم تقريبا . لقد وجدت « ليفى » نفسها عاجزة عن الابتعاد عنه ،وهكذا اخذت تلتمس الاعذار المختلفة لتذهب الى العيادة ، ثم قالت انهـــا تريد ان تساعده فى عمله وتتمرن على التمريض .. وكانت تعـــرف انها لا تريد هذا الا لتظل بجانبه طيلة اليوم . وكان طبيعيا بعد ذلك ان تبقى الى ساعة متأخرة بعد الغروب لترتب العيادة وتغســـل الاوعية . ولكنها لم تكن تتأخر الا من اجله ايضا .. ولم يمر غير اسبوعين وبضعة ايام حتى امكنهمـــا ان ينفردا لحظـــات كل يوم تقريبا . وكان « جاتان » يسرع بارسالها الى البيت بعد ان يتبادل معها قبلات سريعة خاطفة ، وذلك خوفا من انتشار الشائعات عنهما.

وقد شعر بالاضطراب الشديد فى اليوم السابق فقط ، لانه ظن ان الكناس رآهما يتبادلان القبلات !..

وقد قالت له حين اعرب لها عن مخاوفه :

— اننى لا أهتم بما يقوله الناس مادمنا سنتزوج يا « جاتان » .. اليس كذلك ؟.. الا يتزوج الناس عندما يحب بعضهم بعضا ؟

وازدادت سمات الاضطراب الشديد على وجهه الاسمر الوسيم ، كما بدا الحزن واضحا فى عينيه وهو يقول :

— لا اظن ان الزواج ممكن بيننا يا « ليفى » !

فقالت ليفى باصرار :

— بل ممكن .. ممـــكن .. ان ابى وامى ليســـا كبقية الجنس الابيض ..

فرد بهدوئه المعتاد :

— نعم .. انهما يختلفان حقا .. ولكن هل يقبلان زواجك بى ؟ لا .. لا اظن ..

فصاحت قائلة :

— فى هذه الحالة لن اصدق انهما خادمان صادقان للانسانية

فقال لها متوسلا بارق صوت :

— لا .. لا .. ارجوك .. لا تقولى هذا .. انت تعرفين انهمـــا

طيبان .. ولكن ..

— ولكن ماذا ؟..

— ان من الصعب جدا ان يبلغ الانسان ذروة الطيبة والتســـامح والايمان الدينى

ولكنها لم تفهم شيئا مما اراد ان يقول ، وانما قالت ببساطة :

— المهم هل تقبل انت ان تتزوجنى اذا لم يعارضا هما ؟

— انت تعرفين يا « ليفى » ان هذه اغلى امنية لى فى الحياة ..

— اذن سوف اجعلهما يقبلان ..

ولكن هاهى ذى جالسة مع امها التى كانت مشغولة بفحص الملابس المغسولة ورتق الاجزاء الممزقة فيها — وكانت — اى ليفى — تكره هذا العمل ، ولكن الخادمات الهنديات لم يكن يحسن الخياطة او الرتق ، لان الواحدة منهن اعتادت ان ترتدى السارى الذى لم يكن يحتاج لاكثر من غرزات قليـــلة ، كمـــا ان الاطفـــال عادة لم يكونوا يرتدون شيئا غير مطارف تلف على اجسادهم الصغيرة اذا كان الليل باردا . ومع ذلك فقد رحبت بانفرادها مع امها فى هذا الصباح ، لانها ترى ان امها يجب ان تعرف اولا ، ثم تحدث اباها بالامر ثانيا ، وان هناك خطة ينبغى ان ترسم بحذر وبراعة !

وعادت من ثم تقول لامها :

— اعتقد ان من واجب ابى ان يرحب بزواجى من « جاتان » ، لانه يقول دائما ان « جاتان » شاب مدهش ..!

— انه مدهش فعلا .. ولكن هذا لا يبرر موافقة ابيك على زواجك به .. !

وراحت ترنو الى ابنتها فى حزن وحيرة .. وكانت « ليفى » قد وثبت واقفة ، واخذت تدور فى الغرفة حافية القدمين ، ممطوطـــة الشفتين ، تغمغم بكلمات ممضوغة لا معنى لها ..

وقالت الام اخيرا :

— اجلسى يا « ليفى » ولا تمطى شفتيك فى وجهى . ساعدينى فى اطالة ثوب « ساره » اختك .. انها تكبر بسرعة ، اما انا فســـوف أرتق غطاء هذه الوسادة ..

وعادت « ليفى » الى الجلوس ، وبدات تفك طرف ثوب اختهـــا

« ساره » لتطليله . وكانت تجلس مع امها فى غرفة من البيت القديم الذى اشتراه ابوها يوم جاء الى القرية لاول مرة . ولكن البيت لم يظل كما كان ، مكونا من غرفتين وصالة .. وانما ظل « تيد » يضيف اليه غرفات بعد غرفات حتى اصبح عددها عشرا .. اما الحديقة المحيطة به ، فقد صارت متعة للناظرين ..

وكانت « ليفى » تحب الحياة فى القرية ؟ ومن ثم نشأت كأية فتاة هندية .. تسير بنفس الرشاقة ، وتتحدث نفس اللغة بطلاقة ،وتهوى الطعام الهندى وكأنه طعامها الوطنى .. !

وكانت القرية نفسها قد تغيرت بحيث لا يكاد احد يصدق انها نفس القرية التى جاء اليها « تيد » للاقامة فيها منذ سبعة عشر أو ثمانية عشر عاما .. لقد شقت حولها المصارف للتخلص من مياه المطر الزائدة ، وحفرت فيها الابار ، وادخلت على زراعتها الوسائل الحديثة ، وانشئت الوحدة المجمعة للعلاج والتعليم والخدمة الاجتماعية، وعرف الفلاحون كيف يطلون بيوتهم من الداخل بالطين والروث حتى تغدو الجدران والارضية صماء ملساء ليس فيها شق واحد للحشرات . واخيرا اقبل « جاتان » للمعاونة بخبرته الطبية ، مضحيا بالعمل فى عيادة ابيه الطبيب الكبير فى بومباى

و « جاتان » ــ فى رأى « ليفى » ــ شاب بارع قوى وسيم مثقف .. وانها لفخور بحبه ، ولكنها لا تدرى سر تردده فى مصارحة ابيها بهذا الحب . لقد اعتادت ان تراه يناقش اباها مناقشة الند للند فى مختلف الشئون ، فلماذا يجبن عن مناقشته فى اهم شأن يخصهما معا ؟!

وانها لا تجد أية غرابة فى حبها لـ « جاتان » .. وأية غرابة فى ان تحب شابا هنديا وقد عاشت حياتها فى صميم الهند ؟.. ان الوطن فى رأيها ليس مجرد دماء تجرى فى عروقها أو لونا ابيض يميز بشرتها .. وانما هو الارض التى تعيش عليها ، والهواء الذى تتنفسه ، والطعام الذى تأكله ، والعادات التى تتمسك بها وتألفها ، والناس الذين تعيش بينهم يوما بعد يوم وعاما بعد آخر .. وعلى هذا الاساس فان الهند تعتبر وطنها الاول ، فأية غرابة او شذوذ فى ان تحب شابا هنديا أو ترغب فى الزواج من شاب هندى ؟!

وقد يحدث فى بعض الاحيان ان يضيق الانسان بالمكان الذى يعيش فيه ، حتى لو كان فى داخل الوطن .. ولكن « ليفى » لم تشعر يوما بالضيق من الحياة فى فاهى . بل على العكس .. لقد كانت تحب كل شىء فيها ، وكذلك امها .. كانتا تحبان الاشياء والمظاهر الصغيرة التى تطبع فاهى بطابعها . كانت كل منهما مثلا تضحك وهى ترى معارك النسانيس والقردة على الاشجار ، أو صياحها وثرثرتها فى الصباح الباكر ، وازيز طواحين الغلال، ووسوسة الاساور والخلاخيل الفضية فى أيدى الفتيات الهنديات واقدامهن ، وهن يرحن ويغدين حاملات الجرار .. وكركرة المغازل اليدوية ، لان كل فرد فى أنحاء الهند كان قد تعلم الغزل ليعمل مدة ساعة على الاقل فى اليوم ليصنع ثوبا من الخيوط القطنية المحلية بناء على رغبة غاندى الذى اصبح روح الهند الكبرى ..

وقطعت الام حبل الصمت بقولها :

ــ واحب ان أوضح لك يا « ليفى » اننى شخصيا غير موافقة على هذه الرغبة فى زواجك من « جاتان » لاننى لا أستطيع أن أقتنع بفكرة زواج فتاة امريكية بيضاء بشاب هندى .. ان « جاتان » لا ينحدر حتى من اب انجليزى

فقالت « ليفى » وهى تكتم سخطها :

ــ انك تتحدثين عنه كما لو كان من طائفة المنبوذين .. !

فاحتجت أمها قائلة :

ــ « ليفى » ؟ .. كيف تقولين هذا بعد كل مافعله ابوك من أجل هذه الطائفة ؟.. لقد آمن ابوك بصدق غاندى واخلاصه ، عندما علم ان هذا الزعيم اختار فتاة من طائفة المنبوذين وتبناها كابنته . وانت .. الم ترى بنفسك اكثر من مرة أننى لا افرق فى المعاملة بين المنبوذين وغيرهم ؟!

وقالت « ليفى » بلهجة الذى قرر امرا :

ــ لقد اتفقت مع « جاتان » على الزواج ..

فهزت الام كتفيها فى يأس وقالت :

ــ اذن لا تدعينى أخبر والدك بهذا الامر .. لاننى لا احب أن اكون موضع تأنيبه لسبب كهذا !

فقالت « ليفى » بعزم :

ــ حسنا .. لسوف اقوم انا و « جاتان » باخباره ..

فتأوهت الام وقالت :

ــ اوه ، ويحى .. ان هذا الخبر سوف يقتله لانه يحبك انت اكثر من حبه لجميع اخوتك !

فتساءلت « ليفى » قائلة ، وهى تطوى ثوب اختها بعد ان فرغت منه :

ــ اذن ماذا افعل ؟!

فتنهدت الام قائلة :

ــ اننى لا ادرى .. فما كنت اظن ان شيئا كهذا يمكن ان يحدث .. فانا شخصيا مهما بلغ حبى للهند ..

فاكملت لها « ليفى » العبارة قائلة :

ــ لا تستطيعين ان تحبى هنديا !

فقالت الام محتجة :

ــ لا .. ليس هذا ما اعنى .. فانا احب كثيرا من الهنود والهنديات ، ومنهم « جاتان » ولكن ليس الحب الذى تعنيه انت ..

وهزت « ليفى » كتفيها وغادرت الغرفة ..

وقالت الام لنفسها : « هذا مستحيل .. مستحيل .. ان ابنتى لن تعيش حياتها كلها فى الهند .. ولكن كيف يمكنها ان تعيش فى امريكا ؟.. ان المجتمع هناك لن يغفر لها زواجها من رجل ملون . وان « جاتان » لن يستطيع ان يساعدها فى شىء .. »

وكانت الشمس عندئذ قد اوشكت على المغيب ، وامتدت ظلال الاشجار الضخمة على القرية .. وبدا الجو اقرب الى الظلمة منه الى النور ، ومن ثم تسللت « ليفى » منتعلة صندلها الصغير ،مرتدية السارى الهندى ، وانطلقت فى طريقها الى المكان الذى اعتادت ان تلقى فيه « جاتان » وهى تعلم انه فى انتظارها كالمعتاد ..

وظلت تسير بخفة ورشاقة غير خائفة مما قد يعترض طريقها من افاعى وحشرات سامة . وكانت الامطار الموسمية لا تكف فى ذلك الحين عن الانهمار ، الا انها فى تلك اللحظة كانت قد خفت كثيرا حتى امست رذاذا ..

ولم تكن « ليفى » تشعر بالحرج من لقائها سرا بـ « جاتان » .. فقد كانت ترى فى هذا ضرورة لا مندوحة عنها حتى لا تعرض سيرتها للشائعات والتقولات . ولكن هذه السرية لن يكون لها مجال بمجرد ان يوافق أبوها على خطبة « جاتان » لها .. انها عندئذ .. تستطيع ان تلقاه فى اى مكان دون ان تخشى شيئا

اما « جاتان » ، فقد احبها اولا على سبيل اللهو والعبث .. كان يعتقد أنها تحبه بدافع من نزوات المراهقة الجارفة المتطرفة . وكان هو شابا فى السادسة والعشرين ، رزينا ، متزن التفكير ، واقعى التصرفات ، يعرف ان الامل بعيد فى زواجه من فتاة امريكية تنتمى الى اكبر الاسر فى نيويورك . ولكن حبه الذى بدأ على أساس من اللهو لم يلبث ان تحول الى حب كبير ، وهكذا راح يحلم باليوم الذى يغدو فيه زوجا لـ « ليفى » رغم جميع الفوارق العنصرية

ولما وصلت « ليفى » الى مكان اللقاء عند خميلة فى نهاية الحديقة ، قالت له :

ــ ما أشد الظلمة ؟ .. لابد انى تأخرت عن موعدى ..

ــ نعم .. ولهذا يحسن ان نمكث هنا طويلا ..

وشعر ــ قبل أن تقول هى شيئا ــ أن الامور ليست كما ينبغى ان تكون . ومن ثم نفر ، بغريزته ، عن الاقتراب منها ، أو وضع يدها بين يديه كالمعتاد ..

وقال بانفاس متقطعة :

ــ هل اخبرت والدتك ؟

ــ نعم .. وهى غير موافقة ..

ــ حتى هى أيضا ؟

ــ بل انها لا تجرؤ أن تفاتح أبى فى الامر ..

فقال وهو يضع زمام الامر بين يديها :

ــ اذن ماذا نفعل ؟

ــ علينا أن نذهب معا الى أبى ونخبره ..

ــ انا وانت ؟!..

ــ الا تريد أن تكون بجانبى ؟..

ــ اريد طبعا .. ولكن كيف يكون الحال لو .. لو طردنى من البيت ؟

— فى هذه الحالة سأخرج معك ..

ورات ظلال اليأس تطوف بوجهه الوسيم وهو يقول :

— هل تعتقدين أن الامر على هذا النحو من البساطة ؟

فهزت كتفيها وقالت :

— على كل حال ليس هناك مايدعونا الى أن نسبق الاحداث .. فمن يدرى ؟ فلعل ابى يكون اشفق علينا مما نظن .. انه شفيق بنا دائما ..

— نعم .. ولكن ونحن منفصلان !

— اوه !.. لماذا تستسلم لليأس بهذه البساطة يا « جاتان » .. تعال معى ..

ثم امسكت بيده ، ومضت به فى الطريق الى البيت !

***

كان « تيد » جالسا فى غرفة مكتبه الصغيرة الهادئة ، وهى آخر غرفة فى مجموعة غرف البيت ، لها باب يفضى الى الساحة الصغيرة المؤدية الى الحديقة الخلفية . وفى احد جدرانها الخالية من النوافذ علقت صورة والدته « أوليفيا » التى اهداها اليه جده منذ أمد بعيد ، وكانت الهدية نصا فى وصيته . وكذلك نص فى هذه الوصية على أن يودع مبلغ كبير باسم الابن ، أو الابنة ، الاولى لـ « تيد »

وكان « تيد » قد راض نفسه على التفكير فى « آنيز » كزوجة لابيه . ولكنه لم يحاول أن يراها أو يرى أباه خلال هذه السنوات الطوال . ولم يكن فى مقدوره ان يفعل هذا حتى لو اراد .. لان أباه لم يلبث بعد ثلاث سنوات من زواجه ان عاد الى نيويورك واستقر فى بيت الاسرة الكبيرة تاركا المؤسسة الضخمة التى أقامها فى بونا بين يدى مجلس ادارة من الهنود والامريكيين

ولم يندم « تيد » يوما على زواجه بـ « روثى » .. اذ وجد فيها اكبر العون على أداء رسالته الانسانية فى قرية فاهى . ولم تحاول هى من جانبها أن ترحل عن القرية الى اى مكان آخر ..

أما عمله فى فاهى ، فقد أشاد به « داريا » فى احتفال ضخم ، اذ قال : « ولقد أشعلت يا « تيودور ماكارد » فى هذه القرية نبراسا يضىء الطريق للبلاد كلها ، وقمت بأعمال يمكن أن يتم مثلها فى كل

قرية بالهند اذا وجدت الرجال المخلصين الذين يكرسون حياتهم لخدمة بلادهم »

وكان حديث « داريا » فى ذلك اليوم — وأمام عشرات الالاف من الهنود الذين جاءوا من كل حدب وصوب — بمثابة وسام من ارفع الاوسمة التى يمكن أن يحلم بالحصول عليها انسان ..

وكان عدد كبير من البيض قد غادروا الهند ، بعد اعلان استقلالها الذاتى .. ولم يحاول احد أن يستبقيهم ، ولكن سكان فاهى ، ورجال الحكومة الوطنية ، الحوا على « تيد » للبقاء فى فاهى حتى يتم رسالته الانسانية الكبيرة . وكان « جيهار » الذى راح يجوب البلاد من اقصاها الى اقصاها ، يأتى لزيارته بين الحين والاخر ، ويشيد بأعماله امام السكان .. ويعلن انه مهما فعل ، ومهما ضحى ، فانه لن يصل الى مستوى تضحيات « تيد » الذى ترك بلاده وثروته ، وحرم نفسه من مباهج الحياة فى أمريكا ليعيش بين القرويين فى صميم الهند .. يأكل من طعامهم ، ويشاركهم آلامهم وامالهم ..

وفيما هو يستعرض تاريخ حياته فى الهند ، اذا به يسمع وقع اقدام تقترب من باب الغرفة . وانفرجت الستائر المسدلة على الباب ، وسمع صوت ابنته « ليفى » تقول :

— هل تسمح لنا بالدخول يا ابى ؟

وكانت « ليفى » تتحدث بالهندستانية ، ولكن اباها رد بالانجليزية قائلا :

— ادخلى ..

ولما راى « جاتان » معها ، اردف قائلا فى عطف :

— وانت أيضا يا « جاتان » .. ادخل .. هل توقف المطر ؟

فقالت « ليفى » وهى تجلس :

— نعم .. ولكن الضباب كثيف ..

وقال أبوها وهو يرمقها بحب وحنان ، وقد لاحظ أنها لا ترتدى شيئا غير السارى الهندى :

— ماذا ستفعلين عندما تلتحقين باحدى الجامعات الامريكية .. هل ستصرين على ارتداء السارى هناك ؟

وانتهزت « ليفى » هذه الفرصة السانحة ، وقالت :

— انني يا ابى لا أريد الذهاب الى امريكا ..

وخامر « تيد » فى هذه اللحظة شعور عميق بالقلق ، جعله يقول :

— بل يجب ان تذهبى يابنتى .. ان جدك سوف يغضب جدا اذا لم تستكملى دراستك الجامعية فى نيويورك ، كما أن والد جدك قد اودع باسمك مبلغا ضخما هناك ..

ونظرت « ليفى » الى « جاتان » فى توسل ، لكى يتحدث مع أبيها بدلا منها .. ولم يسع الشاب الا أن يبتلع ريقه ثم يقول :

— سيدى .. اننا .. « ليفى » وانا ، فى محنة شديدة .. لقد .. وقعنا فى الحب ، ونريد أن نتزوج ..

وقالت « ليفى » :

— نعم يا ابى .. هذا هو ماحدث ..

وأردف « جاتان » قائلا ، وقد تشجع بعد ان نطق بكلمة « الحب » الصعبة :

— ان ماحدث كان رغما عنا يامستر « ماكارد » .. وهو امر منطقى يتفق مع ماتعلمناه على يديك منذ الطفولة .. لقد علمتنا يا سيدى أن ننظر الى الناس جميعا على انهم سواسية ، لا فرق بين هندى وامريكى ، وقد تعلمت فى جامعة ماكارد ببونا — يا سيدى — اننا جميعا أبناء الله ، وان الله لا يفرق بين أبنائه ، ولا يحابى احدهم لانه ابيض ، ولا يكره الاخر لانه اسود .. ولهذا فانى احببتها وانا مطمئن الى انك لن تعارض فى هذا الحب !

وحملق « تيد » فى وجه الشاب المتوسل ، ثم نظر الى يديه المبسوطتين ، وقد بدا بياض الكفين فى تنافر شديد مع سمرة البشرة

وفجاة أحس « تيد » بنوبة من النفور العنيف ، وهو يتصور ابنته « ليفى » .. ابنته الحبيبة التى ورثت الشىء الكثير من جمال والدته « اوليفيا » ، زوجة بين أحضان هذا الشاب المحترق البشرة !..

لا .. ان هذا لا يمكن ان يحدث .. لقد وهب حياته حقا للهند ، ولكنه ليس على استعداد لان يهب ابنته الكبرى ايضا . ان من حقها ان تعيش فى وطنها الحياة الجديرة بها .. ماذنبها لكى تقضى بقية

حياتها فى هذا الجو الملىء بالامراض والاوبئة ؟ لا .. لن يستطيع أحد أن يقنعه بقبول هذه التضحية .. ان القديسين انفسهم يرفضون هذا .. وان السيد المسيح لو كانت له ابنة ، لما قبل هذه التضحية راضيا !

وهكذا قال بصوت اشبه بانفجار القنبلة :

— لا .. لن اسمح بهذا ..

وتراخت يدا « جاتان » على جانبيه ، ونظر الى « ليفى » فى يأس كأنما يقول لها : « أليس هذا ماكنت اتوقع ؟ » .. اما هى فقد بدا الغضب والاصرار فى عينيها ، ولكن اباها بادرها قائلا :

— « ليفى » !.. هل اخبرت والدتك ؟

— نعم .. وقد قالت انها لا تجرؤ أن تخبرك .. ولكننى جرؤت !

فنهض واقفا وقال بغضب متزايد :

— أين هى ؟ .. أين هى الان ؟

وغصت « ليفى » بريقها قبل أن تجيب :

— انها .. انها فى غرفة الخياطة ..

وتوقف الوالد برهة ، وراح ينتقل بنظراته من وجه ابنته الى وجه « جاتان » .. وأراد ان يقول شيئا ، ولكنه عاد وزم شفتيه ، ثم غادر الغرفة بخطوات سريعة ثائرة

وماكادت الستائر أن تنسدل على الباب بعد انصرافه ، حتى بسطت « ليفى » ذراعيها الى « جاتان » هاتفة :

— جاتان .. حبيبى .. اننى لن اتخلى عنك أبداً .. !

ثم اردفت قائلة بأنفاس لاهثة :

— « جاتان » .. ان الحياة عقيدة ، وأمل ، وحب .. ولكن الحب أقواها .. واعظمها ..!

وأدار رأسه فى حزن وقال :

— ولكن ليس حبنا ..!

فقالت باصرار ، وهى تطوق رأسه وتضعه على صدرها :

— بل وحبنا ايضا ..!

وراح يسمع — تحت خده — نبضات قلبها الثائر !

الفصل الحادى عشر

عذارى المعبد

قال « تيد » فى اصرار وهو يتحدث مع زوجته :

ـ انك ترين أن هذا مستحيل ..

فقالت وهى لا تزال تعمل بابرتها فى رتق الملابس :

ـ نعم ، نعم .. اننى أتفق معك . ولكن .. ماذا تنوى أن تفعل ؟

فقال وهو يزداد اصرارا :

ـ سأحجز تذاكر سفر الى امريكا فى اول باخرة تقلع من بومباى .. لسوف نرحل جميعا .. وسوف الحق «ليفى» بمدرسة عليا داخلية للبنات ..

ـ ان «ليفى» لم تعد صغيرة .. انها الآن ناضجة مثل فتيات هذه المناطق الحارة

ـ انها فى رايى لا تزال طفلة فى السن وفى التفكير .. وعندما تذهب الى امريكا سوف تفكر بعقلية البنات الامريكيات ..

وصمت برهة فى انتظار ردها .. وطال الصمت .. واخيرا قال :

ـ حسنا ! .. هل لديك فكرة اخرى ؟

فردت قائلة :

ـ لا .. كل ما اعرفه اننى لا احب مغادرة فاهى .. ولكننى اعتقد انك على حق يا «تيد» .. يحسن بنا أن نبعدها عن الهند ..!

ـ هل ستخبرينها انت أم اخبرها انا ؟

ـ يحسن ان تقوم انت بهذه المهمة ..

***

وفى الليلة التالية ، كان جالسا فى الشرفة الكبيرة مع «ليفى»

وهى تلاعب اختها الصغرى «ساره» بالكرة . وكان يعرف ان «ساره» الصغيرة تحب اختها الكبرى « ليفى » الى حد العبادة ، ولا تكاد تطيق فراقها لحظة ، أما أبناؤه الثلاثة ، فكان قد أرسلهم الى مدرسة داخلية فى نيويورك

واستدعى اليه «ليفى» .. فلما اقبلت هادئة ، ناضرة ، قال لها مشيرا الى مقعد مريح امامه :

ـ اجلسى هنا

وصاحت « ساره » فى احتجاج قائلة :

ـ ان الليل يوشك أن يزحف علينا ، ولن نستطيع مواصلة اللعب .. !

فقال لها الوالد :

ـ تعالى انت ايضا يا « ساره » واجلسى ..

فقالت الصبية فى جزع :

ـ لماذا .. ماذا فعلت يا أبى ؟

ـ لا شىء ..

وقالت «ليفى» لها :

ـ انا التى فعلت شيئا .. لقد ارتكبت خطأ ، وابى الآن سيعاقبنى .. !

فقالت « ساره » فى احتجاج :

ـ ان «ليفى» يا أبى لاتخطىء .. انها لم تخطىء أبدا .. !

وقال الوالد :

ـ لا اعتقد أن السفر الى امريكا يعتبر عقابا يا «ليفى» .. وهذا ما سأفعله .. لقد ارسلت خطابا الى شركة البواخر فى بومباى اليوم لتحجز لنا تذاكر السفر الى امريكا على أول باخرة .. واعتقد ان الامر لن يستغرق اسبوعا ..

ولما بدا السرور على وجه «ساره» التى كانت تحلم بالسفر الى هذه البلاد التى لم ترها رغم كل ما سمعته عنها ، قال الوالد :

ـ أليست هذه انباء سارة يا « ساره » ؟

ولكن «ليفى» اسرعت تقول فى ثورة مكبوتة :

ـ لا يا أبى .. هذه ليست انباء سارة ..

وهنا هتفت « ساره » قائلة :

ـ مادام هذا هو رأى «ليفى» ، فهو رأيى أنا أيضا يا أبى ..!

فقال الوالد :

ـ لسوف نسافر على كل حال .. وسنبقى هناك عاما ، ولكن «ليفى» ستبقى اربعة اعوام حتى تتخرج فى الكلية .. ولعلها بعد ذلك تتزوج شابا أمريكيا !

فصاحت « ساره » محتجة :

ـ لا .. لا .. والا كيف ستعيش معنا فى فاهى بعد ذلك ..

ـ لعلها بعد أن تتزوج لا ترغب فى الحياة مرة اخرى فى فاهى ، ان الحياة فى امريكا رائعة .. الشوارع الناعمة ، والسيارات الفاخرة ، والمراقص والملاهى ، والملابس الانيقة .. وربما الرحلات الى انجلترا وفرنسا صيفا

ووثبت «ليفى» واقفة وقالت :

ـ هل تأذن لى بالانصراف يا أبى ؟!

ـ طبعا .. طبعا .. تعالى أنت يا « ساره » واجلسى على حجرى لاحدثك بالمزيد عن الحياة فى وطنك ..

وفيما كان يحدثها عن الحياة فى أمريكا ، كان ثمة نغمات حزينة تنساب من مكان ما فى الظلام المنسدل على فاهى ..

***

وفى الظلام ، سارت «ليفى» بخطوات رشيقة سريعة غير حافلة بالافاعى أو الحشرات السامة . وكانت تعرف أن «جاتان» سيكون فى مثل هذه الساعة بمفرده فى مسكنه القريب من العيادة ، وان عليها الان أن تذهب اليه لكى تثير فى نفسه روح المقاومة والكفاح . لقد حاولت فى الليلة الماضية ، بعد انصرافه من غرفة أبيها أن تدفعه ، ولكنه قال لها يائسا :

ـ لا .. لا .. ان هذا لن يكون .. أبدا ..

ولكن ، الليلة ، لابد ان يعرف ان على الانسان ان يكافح فى سبيل مايريد ، وان يقاوم كل عوامل اليأس ، وأن يدرك انه لاشىء مستحيل ما دام هناك أمل ..

واندفعت تجرى بحافز من الخوف والحب .. الخوف من الافاعى

والحشرات السامة التى تخرج زاحفة من مكانها ليلا ، والحب الذى لابد ان يتوج بالزواج ..

وصعدت الدرجات الثلاث المؤدية الى الشرفة الامامية لمسكنه الصغير ، ثم طرقت على الباب الذى كان بصيص من الضوء ينساب من فتحته العليا .. وما لبث ان فتح « جاتان » الباب ، فلما رآها هتف مدهوشا فزعا :

ــ «ليفى» ؟ .. ماذا جاء بك الى هنا ؟

ــ دعنى ادخل ! ..

وازاح لها الستائر الثقيلة المسدلة على المدخل ، وسمح لها بالدخول وهو يهمس قائلا :

ــ يجب ان اطفىء المصباح حتى لايراك احد .. ولعل احدا قد رآك وانت قادمة ..

ــ اننى لم اعد اهتم بأحد ، بعد ان عرف والداى الامر

فلما رأته مترددا ، أردفت قائلة :

ــ حسنا .. لسوف نجلس هنا ، فى الردهة .. فى الظل .. ولن يرانا احد من الخارج .. ولن يطول بى البقاء يا«جاتان» ما دمت خائفا . ولكن يجب ان اخبرك بما حدث .. ان ابى ارسل يحجز تذاكر لسفرنا الى امريكا على أول باخرة . وسوف يعود هو بعد عام أما انا فسأبقى هناك اربعة اعوام ، اربعة أعوام يا «جاتان» .. ثم كيف آتى بعد ذلك الى فاهى اذا لم يسمح لى بالحضور ؟ لهذا كله يجب يا «جاتان» أن تلح فى مطالبتك بزواجى ، او يجب ان نتزوج سرا لنضع الجميع أمام الامر الواقع !

فقال «جاتان» بصوت كله الحزن والتأثر :

ــ كيف نتزوج سرا يا «ليفى» ؟ ان زواجنا لابد ان يتم على يد القنصل الامريكى فى بونا . وبطبيعة الحال سوف يخبر القنصل اباك قبل أن يعقد قراننا .. لا يا «ليفى» ؟ ليس امامنا الا ان نستسلم لقدرنا ونفترق !

وعضت على شفتها ، وقالت وهى تشيح بوجهها :

ــ كنت أعرف انك ستقول هذا .. كنت أعرف أن الشجاعة تنقصك ، ولست أدرى لماذا احببتك !

وقال هو فى ذلة :

ــ ولا انا .. !

وجلس الاثنان جنبا الى جنب فى ظلال الردهة . وخيم الصمت عليهما وهما يقتربان حتى تلامس جسداهما .. وكانت أول مرة تأتى فيها «ليفى» الى مسكنه .. فى الليل . واحس بجسمها ، تحت السارى الرقيق ، دافئا بجانب جسمه .. ومد يده وتناول يدها وراح يمسح عليها برفق ، ثم بسط ذراعه الاخرى وطوى خصرها .. ومالت براسها على كتفه ، وارتفعت يده التى كانت تدلك يدها الى ذراعها .. ثم الى عنقها .. وهبطت الى صدرها .. ثم اسقطت السارى عنها ..

ونهض واغلق باب المسكن بالرتاج من الداخل ، وعاد الى المصباح فاطفأه ، ثم جلس بجانبها ، ملتصقا ، وهمس قائلا :

ــ والآن .. ما رايك يا «ليفى» ؟

وسرت فى جسدها رعدة خفيفة وهى تطوق عنقه بذراعيها ، وضغطت بشفتيها على شفتيه فى قبلة طويلة ..

وحملها بين ذراعيه الى الداخل .. وقد خيل له ان هذه الليلة ستكون آخر ليلة يلتقيان فيها ، وانها ستكون نهاية الحب اليائس الذى يعتبره هو اسوأ واخطر انواع الحب ..

ولكنها لم تكن النهاية .. وانما كانت بداية احدىعشرة ليلة .. فى كل ليلة منها كانت «ليفى» تتظاهر بالنوم فى غرفتها أمام الخادمة الهندية الخاصة ، ثم تنهض تتسلل فى سكون الليل ، وتنطلق الى مسكن «جاتان» ، عارية القدمين ، مطمئنة الى أن آلهة الحب سوف تحميها من الافاعى والحشرات السامة

وكانت فى أول الامر تشعر بالفزع من هذه الهاوية التىترددت فيها . ولكنها لم تبذل اى جهد لكى تمنع نفسها من الاستمرار فى السقوط فيها ، ليلة بعد ليلة ، بلا انقطاع .. وقد حاولت كثيرا ان تتذكر الوصايا العشر ، وان تستعيد فى ذهنها معانى الطهارة والعفافوكبت النفس . ولكنها ، مع ادراكها لهذه المعانى كلها ، وعلمها بانها معان مشرفة رائعة ، فقد ظلت تتسلل كل ليلة الى مسكن جاتان كأية بنت من بنات الهوى ..

ولكنها ، مع هذا كله ، لم تحاول ان تخلط بين الاله الذى يعبده ابوها ، وتعبده هى ، وبين بعض الآلهة التى يعبدها بعض السكان فى المعبد .. المعبد الضخم المقام فى بونا ، وليس فى فاهى . وكانت تعرف ، كما يعرف الجميع ما يجرى داخل هذه المعابد تحت ستار الدين ، وكيف ان الكهنة يختارون عذارى معينات ليعاشروهن معاشرة جنسية زاعمين انهم ينقلون الى اجسادهن اقباسا من ارواح هذه الآلهة ..

وكانت «ليفى» تشعر فى كل ليلة ، وهى ترتمى بين ذراعى «جاتان» ، انها لا تزيد فى شىء عن واحدة من هؤلاء العذارى .. عذارى المعبد !

***

وفى الليلة الاخيرة التى تقرر السفر الى بومباى فى صباحها ، اقبلت «ليفى» الى «جاتان» ولكنهما لم يمارسا الحب على طريقة عذارى المعبد ، وانما جلسا جنبا الى جنب ، وراحا يتبادلان الحديث همسا وقد تعلق كل منهما بالآخر . واخيرا قال «جاتان» معربا عن مخاوفه :

ــ كيف يكون الحال يا «ليفى» اذا .. اذا وضعت طفلا ؟

فهتفت قائلة :

ــ هذا ما ارجوه ..

ــ لا يا «ليفى» .. ان هذا آخر شىء ارجوه فى حياتى . ولكن اذا حدث ما لم يكن فى الحسبان ، فارجوك أن تتخلصى منه ..

ــ بل سأحتفظ به حتى اعود اليك ..

ــ ارجوك .. بل آمرك .. اننى لا استطيع ان اعيش فى سلام وانا عاجز عن احتمال عبء وجود ابن لنا معك ..

ــ ولكن ماذا يمكننى ان افعل فى هذه الحالة ؟

ــ اعطيه لاى شخص اسود فى بلادك .. لسوف يكون اسود مثلى .. دعيه يعيش حياته بعيدا عن عذاب الشك والحيرة ..

وبعد برهة صمت ، قال مستطردا وهو ينهض :

ــ هذه هى النهاية يا «ليفى» .. لقد انتهى كل شىء ، ولكننا انتزعنا من القدر شيئا .. وداعا يا «ليفى» ..

ثم اغلق الباب بعد ان انصرفت .. ولكنه سمعها وهى تعتمد برأسها على الباب من الخارج .. وتبكى ..

وبكى هو .. ولكنه لم يفتح الباب .. !

واخيرا سمع وقع اقدامها وهى تهبط الدرجات الثلاث فى طريقها الى .. المجهول .. !

***

واخذت الباخرة تبتعد عن شاطىء بومباى فى طريقها الى اوروبا ثم الى نيويورك . وظل «تيد» واقفا يرقب آخر شعاع من اشعة الشمس وهو يغيب وراء الموج ، ثم قال لزوجته الواقفة بجانبه :

ــ أين «ليفى» ؟

ــ فى مقصورتها ترتب الملابس بالخزانة ..

وهنا قال وهو يرى المسافة تتسع بين الباخرة والشاطىء :

ــ حسنا . لقد استطعنا أن نحملها بسلام بعيدا عن الهند ..

فقالت « روثى » بهدوء :

ــ اعتقد هذا ..

وخيل اليه ان فى صوتها رنة شك خفيفة ، ولكنه لم يحاول ان يعرف سبب هذا الشك . وصلصل جرس العشاء فى انحاء الباخرة ، ووصل رنينه الى الردهات والاسطح ، وهنا قال «تيد» :

ــ الواقع اننى اشعر بالجوع ..

ــ اذن هلم نمضى الى قاعة الطعام ..

فتحرك بجانبها مرسلا بنظراته الاخيرة الى الشمس الغاربة ، ثم قال فجاة :

ــ ارجو ان تكون «ليفى» قد اقلعت عن ارتداء السارى ..

فقالت « روثى » :

ــ لقد طلبت منها الا ترتدى الملابس الهندية بعد اليوم ..

ــ وهل عارضت ؟

ــ لا .. قالت انها قررت هذا من تلقاء نفسها

ــ حسنا .. هيا الى قاعة الطعام ..

***

وجلست «ليفى» على السطح الاعلى للباخرة بمفردها فى سكون الليل . وكانت أضواء الباخرة تتراقص على سطح البحر الهادىء ، ولكن «ليفى» لم تكن تراها ، بل ولم تكن ترى البحر ، وانما كانت

تعبر بنظراتها المسافات لتصل الى فاهى .. الى «جاتان» وهووحيد فى بيته الصغير . انها تعلم انه الآن سيكون مشغولا كعادته بقراءة كتبه ، أو بتناول طعام عشائه البسيط ، او بجولته الاخيرة على المرضى فى المستشفى القريب من مسكنه ..

واحست بالالم يعتصر قلبها وهى تتذكر موقف أبيها من غرامها .. لو كانت تعلم ان اباها لا يزال يؤمن بالتفرقة العنصرية رغم كل مابذله من خدمات للهند ، لتريثت فى اندفاعها الى هذا الحب ، ولشبت منذ طفولتها وهى تعلم سلفا ان مكانها فى النهاية سيكون فى بلادها الاصيلة ، وليس فى البلاد التى نشات فيها !

ولكن « جاتان» لم ينخدع بأبيها .. كان ذكيا .. وكان يعرف ان ما يبذله هذا الامريكى فى سبيل الغير شيء ، وايمانه بالتفرقة العنصرية شيء آخر . ولهذا فقد ابتسم فى اشفاق حين قالت «ليفى» فى أول مناقشة دارت بينهما فى هذا الشان :

— « جاتان » .. أؤكد لك ان أبى سيسعد بهذا الخبر .. انه يحبك ويقدرك وسيرحب بك كابن ...

ولما صمت ، عادت تقول فى لهجة اتهام :

— الا تؤمن بأبى ؟

— اننى اثق به .. واعرف أن روحه تهفو الى اسمى ما يمكن ان تصل اليه البشرية من كمال انسانى ، ولكن جسمه لايزال ملتصقا بهذه الارض ، بينما عقله حائر بين الاثنين .. انه يؤمن بمثله العليا ويرى انها ضرورية ، ولكنه يقول ان تحقيقها يحتاج الى زمن طويل لابد أن تمر به البشرية اولا . وقد فاته ان الانسان الذى لايحاول تطبيق مثله العليا فورا ، فانه يفقدها !

***

ومرت الايام رتيبة .. وبدات «ليفى» تشترك فى حياة الباخرة الاجتماعية ، وقد أثار صوتها العذب — وهى تردد بعض الاغنيات الهندية الشجية — اعجاب ركاب الباخرة جميعا ، فكانوا يلحون عليها فى بعض الامسيات لكى تغنى لهم ..

ولم يسع «ليفى» الا أن تتجاوب تدريجيا مع الركاب ، وهم يزدادون افتتانا بها يوما بعد يوم . وكانت عبارات المديح والاطراء

لصوتها وجمالها ورشاقتها تتردد فى اذنيها بلا انقطاع كلما غادرت مقصورتها .. ولكنها حاولت بقدر ما تستطيع ان تظل على وفائها لـ «جاتان» .. ومن ثم كانت تنتهز كل فرصة سانحة لتهرب الى ركن فى اعلى سطح الباخرة ، وتنفرد بنفسها ، وتفكر فى«جاتان» .. وتتمنى أن يكون قد حدث شيء يربطها به ويعيدها اليه فى المستقبل ..

ولكنها استيقظت ذات يوم متوعكة ، وقد ادركت ان هذه الامنية الاخيرة لم تتحقق .. فلما دخلت أمها ووجدتها تبكى ، سالتها :

— ماذا بك يا «ليفى» ؟!

وحاولت « ليفى » أن تجفف دموعها وهى تقول :

— لا شيء يا أماه .. اننى اشعر بتوعك .. بسبب هذه الدورة الشهرية اللعينة ..

— ولكن لماذا تبكين .. انها مسالة عادية لا تستحق البكاء ؟

— ألا يبكى الانسان أحيانا بلا سبب يا أماه .. ؟

— الا أنت يا «ليفى» ..

وهزت الفتاة كتفيها ، واغمضت عينيها ، وهنا بسطت « روثى » الغطاء عليها بحنان وهى تقول :

— ارجو ان تشعرى بالدفء بعد قليل .. لسوف ارسل اليك طعام الافطار هنا ..

وانصرفت الام وهى تتنهد فى ارتياح شديد !

ولا يعرف احد لماذا تنهدت بكل هذا الارتياح .. !

ألانها كانت تعرف شيئا وتخشى العواقب ؟!..

ام لان كل شيء قد انتهى أخيرا .. على خير ؟!

انتهت



المؤلفه

* بيرل بك كاتبة كبيرة أمريكية المولد

* قضت معظم أيام حياتها فى الشرق الاقصى

* أول رواية كتبتها هى رواية « ريح الشرق » ثم كتبت « ريح الغرب » ثم « الارض الطيبة » وبعدها روايات اخرى كثيرة

* تعمل مستشارة لاحدى دور النشر الكبيرة وتقوم بنقد الكتب فى مجلة « آسيا وامريكا »

* حائزة على جائزة بوليتزر ، وجائزة نوبل

هــذه الــروايــة

تقدم لنا الروائية العالمية « بيرل بك » ـ مؤلفة رواية « الارض الطيبــة » ـ فى هذه القصة الممتعة ، صورة حية مثيرة للحيـاة فى الهند قبل الاستقلال وبعده ..

انها ترسم هذه الصورة ببراعتهـا المألوفة من خلال ثلاثة أجيال فى احــدى العـائلات الامريكية الموفورة الثراء التى آثرت ان تقيم بالهند .. وكان لكل من هذه الاجيال هدف خـاص ، كما كانت لـه نظرته الخاصــة واتصالاته المتباينة بأبناء الهند وبناته

وقد تضمنت هذه الاتصـالات احـداثا يحتدم فيهـا الصراع بين الحب النبيل وبين التعصب العنصرى .. ترى هـل كان النصر حليف الحب ام حليف التعصب وسـطوة العادات والتقاليـد ؟.. هــذا ما سيعرفه القارئ وهو يطالع هذه الرواية الشائقة ..